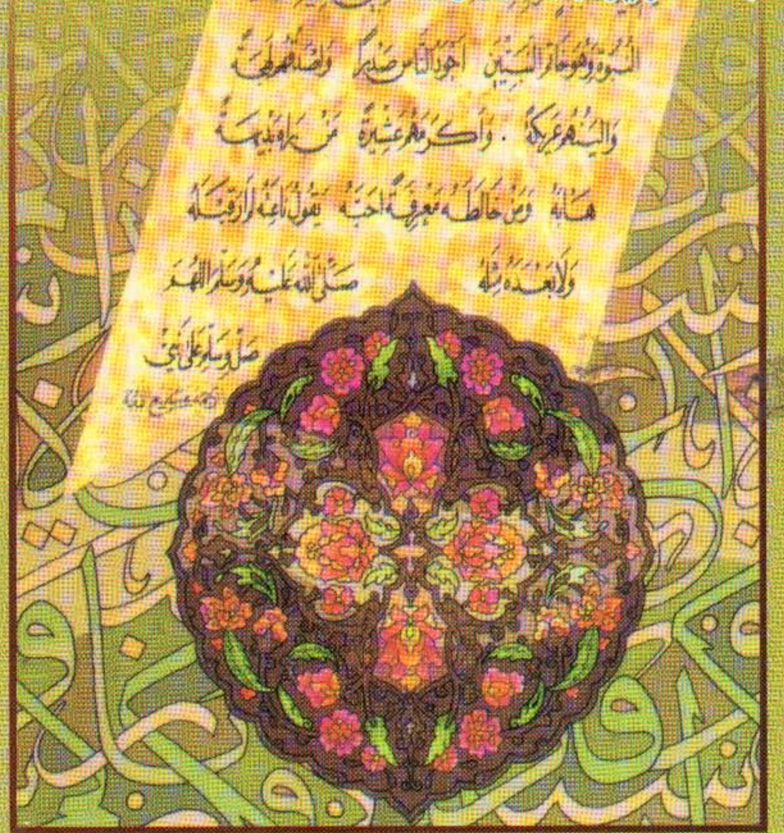
منهج الرشاد لمن اراد السداد

نص الرسالة الجوابية التي بعث بها الشيخ جعفر كاشف الغطاء الى الامير عبد العزيز بن سعود



الغدير

[المكتبة التخصصية للرد على الوهابية]

منهج الرشاد
لمن أراد السداد

منهج الرشاد لمن أراد السداد

نص الرسالة الجوابية التي بعث بها
الشيخ جعفر كاشف الغطاء إلىٰ
الأمير عبدالعزيز بن سعود

مركز الغدير للدراسات الإسلامية



مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي

ص.ب ٣٧٩٦ / ٣٧١٨٥ - ☎ ٧٣٩٩٩٩

أسم الكتاب:	منهج الرشاد لمن أراد السداد
المؤلف:	الشيخ جعفر كاشف الغطاء
الناشر:	مركز الغدير للدراسات الاسلامية
الطبعة الأولى:	١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م
المطبعة:	محمد
الكمية:	٣٠٠٠ نسخة

مقدمة المركز:

هذا الكتاب، في الأصل، رسالة أرسلها الشيخ جعفر كاشف الغطاء (المتوفى سنة ١٢٢٨هـ ـ ١٨١٣م)، زعيم الإماميّة في عصره، إلى الأمير عبدالعزيز بن محمد بن سعود (المتوفى سنة ١٢١٨هـ ـ ١٨٠٣م)، أمير آل سعود في دولتهم الأولى، ويسميه الشيخ جعفر في رسالته هذه الشيخ عبدالعزيز بن سعود.

كتبت هذه الرسالة وأرسلت إلى الأمير السعودي سنة ١٢١٠هـ ـ ١٧٩٥م، أي في زمن عرف متغيّرات خطيرة: أولها سعي بريطانيا إلى التفرُّد بالنفوذ في منطقة شبه الجزيرة العربيَّة ومحيطها، بغية تأمين سلامة المواصلات التجارية بين الهند وانكلترا... وثانيها تأسيس الدعوة الوهابيَّة، وهي دعوة سلفية المعتقد، إمارةً تعمل على التوسّع في شبه الجزيرة العربية ومحيطها، بعد أن تم التحالف سنة ١١٥٧هـ ـ ١٧٤٤م، بين الداعية السلفي الشيخ محمد بن عبدالوهاب والأمير الطّموح محمد بن سعود. وثالثها عجز الدولتين الكبيرتين في المنطقة، آنذاك، العثمانية والقاجاريَّة عن مواجهة ما يحدث.

نعرف، الآن، أنَّ هذه المتغيِّرات كانت بداية تحوُّلات تاريخية في المنطقة... وفي ذلك الزمن أدرك الشيخ جعفر، بوضوح تام، أن خطراً ما يهدِّد المنطقة وأن مدينة النجف الأشرف بخاصة سَتُسْتَهْدف، وأن الأداة ستكون الدعوة الوهَّابيّة المتَّخذة مواقف معادية للشيعة... وقد حدث، في ما بعد، ما توقّع الشيخ حدوثه، فغزا الوهابيون النجف الأشرف وقتلوا ودمَّروا ونهبوا...، وحقَّقوا هدف الإنكليز في إثارة الفتنة.

انطلاقاً من هذا الوضوح في الرؤية، بادر الشيخ كاشف الغطاء إلى الحوار، ووجَّه إلى أمير الوهابيين رسالة يدعوه فيها إلى الحوار واتباع منهج الرشاد، بغية الوصول إلى السداد، أي إلى الصَّواب والاستقامة.

فأقسم عليه بالله تعالى أن ينظر ويتمعَّن «متوحِّشاً من الناس وقت النظر متحذِّراً من النَّفس الأمَّارة كل الحذر، طالباً من الله كشف الحقيقة، سالكاً في المناظرة واضح الطريقة، فلعله يظهر أنه ليس بيننا نزاع».

إن هذا السعي إلى الآخر وحواره، بغية كشف الحقيقة باعتماد منهج الرَّشاد، منذ قرنين من الزمن ونيِّف، هو الذي دعانا إلى التوقُّف إزاء هذه الرسالة وطباعتها، فهي، علاوة على ما ذكرناه، كما يقول العلامة السيد محسن الأمين «أول رسالة كتبت في هذا الموضوع»، وقد «حوت كثيراً ممّا لم يحوه بعض ما تأخَّر عنها، فهي من مفاخر ذلك العصر».

فعسى أن يوفُقنا الله في تحقيق مطلب الرِّسالة، وهو كشف الحقيقة، ولعلّ هذا الكشف يظهر أنه ليس بيننا نزاع، والله الموفق في كل حال.

مركز الغدير للدِّراسات الإسلامية

مقدّمة التحقيق

هـذه الـرسـالـة حصيلـة مراسلة بين شخصيّتين كبيرتين تمثّلتا بالشيخ جعفر كاشف الغطاء ـ زعيم الطائفة الإماميّة في عصره ـ، المُتوفّى سنة ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م، وبين الأمير عبد العزيز بن سعـود ـ أحد قادة الحركة الوهّابيّة في عهدها الأوّل ـ، المُتوفّى سنة ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م.

والسبـب الـذي دعـا إلـى تأليفهـا هو أنَّ الأمير عبد العزيز كتبَ رسالة إلى الشيـخ كـاشف الغطـاء انتقـد فيهـا الممارسـات التي يُطبّقها زوّار المراقد الدينيّة المقـدّسـة، ـ وهـي حسـب العقيـدة الـوهّـابية تقارب الشرك في مقام التوحيد ـ، المبتنية على مفردات نظريّة؛ مثل الشفاعة، والتوسّل، والاستغاثة.

ولمعرفة ما تنطوي عليه هذه الأوراق من مناقشة وجدل يتحتّم فهم الظروف التي كانت سائدة في منطقة الجزيرة، والتي بدأت تؤثر في المناطق المحيطة تأثيراً بالغاً وفعّالاً.

فقد كانت منطقـة الجزيرة العربيّة سياسياً واقعة تحت نفوذ السيادة العثمانيّة (عدا مسقط)، كما كان حـال الدول الأُخرى؛ مثل العراق، وبلاد الشام، ومصر. ولـم تكـن سيطرة الـدولـة العثمانيّة على هذه البلدان سيطرة فعليّة حيث تكتفي من الولاة بتقديم المبالغ المناسبة دليلاً لخضوع الوالي لها.

وفي القرنين (الثاني عشر والثالث عشر الهجريين/ الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين) بدأ النفـوذ البريطـانـي يدخل منطقة الشرق لتأمين سلامة المواصلات التجـاريـة بيـن الهنـد وانكلترا، ووصول بضائع شركة الهند الشرقيّة الإنكليزيّة إلى موانئ الخليج.

وكـانت إيـران تحت سلطـة الافشـاريين بعـد سقـوط الـدولة الصفويّة سنة ١١٣٥هـ/ ١٧٢٢م.

وفي أوائل القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي أصبح نفوذ البريطانيّين شبه منفرد في المنطقة لانشغال الدولتين الكبيرتين: القاجاريّة والعثمانيّة بأوضاعهما الداخليّة المضطربة، والنزاعات المتكرّرة بينهما.

ففي هذا الوسط ظهرت الدعوة الوهّابية، وامتدّت بتحالف تمَّ عام ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م بين الشيخ محمّد بن عبد الوهّاب، والأمير محمّد بن سعود على أن يكون صاحب السيف حارساً للدين، وناصراً للسُنَّة، وأنْ يستمرّ الداعية على الجهر بدعوته الإصلاحيّة الجديدة.

وقد اتّسعت الإمارة في عهد محمّد بن سعود[1] فشملت أكثر نجد؛ حيث تكرَّستْ فتوحاته على القُرى المحيطة بالدرعيّة، والتي نجح في القضاء على زعاماتها المحليّة ولم يبقَ خارجاً عن قبضته سوى مدن الرياض، والأحساء، والقصيم.

وقد حكم محمّد بن سعود عشرين عاماً حتى وفاته سنة ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م؛ حيث تولّى الحكمَ بعدَه ولدُهُ عبد العزيز.

أمّا ولدُه (المعني بهذه الرسالة) عبد العزيز بن محمّد بن سعود فقد حكم (٣٩) عاماً، وخلال هذه الفترة الزمنيّة اتّسعت فتوحاتُهُ اتّساعاً امتدَّ بسلطانه من شواطئ الفرات إلى رأس الخيمة، وعُمان، ومن الخليج إلى أطراف الحجاز وعسير.

إنَّ العلاقة الوهّابيّة ـ الاثني عشريّة مرّت بمرحلتين:

الأولى: في حياة شيخ الوهّابيّة محمّد بن عبد الوهّاب حتى وفاته عام ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م.

الثانية: ما بعد رحيل الإمام محمّد بن عبد الوهّاب؛ أي خلال مرحلة حكم الأمير عبد العزيز بن سعود (١٢٠٦هـ ـ ١٢١٨هـ).

(١) كانت إمارة آل سعود لا تتعدّى البلدتين، أو الثلاثة، في زمن أبيه سعود بن محمّد بن مقرن. وقد اتّسعت الفتوحات بعد تولّي محمّد بن سعود الزعامة سنة ١١٣٩هـ/ ١٧٢٧م.

ففي المرحلة الأولى لم تشهد المدن المقدّسة الشيعيّة أيّ هجوم وهّابي. والسبب يعود ـ كما ذكر الشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء في كتابه «العبقات العنبريّة في الطبقات الجعفريّة»[1] ـ إلى علاقة الشيخ جعفر الطيّبة مع الشيخ محمّد بن عبد الوهّاب. وبالرّغم من أنّ المصادر التاريخيّة لم تُشِرْ إلى علاقة كهذه سوى ما ذُكر في «العبقات»، فإنَّ سياق الأحداث التأريخيّة يؤكّد وجود علاقة بين الطرفين، ربَّما امتدّت منذ إقامة الشيخ محمّد بن عبد الوهّاب أيّام دراسته في بغداد، وبقيت حتى تولّي الشيخ كاشف الغطاء زعامة الطائفة الإماميّة.

أمّا المرحلة الثانية ـ والتي تبدأ بعد وفاة الشيخ محمّد بن عبد الوهّاب ـ، فإنّها اتّسمت بالحوار الدبلوماسي في سنيّها الأولى، لكنّها لم تستمرّ على هذه الوتيرة بعد الغزو الوهّابي لمدينة كربلاء عام ١٢١٦هـ، وإحلال الدمار والقتل فيها.

وتتجلّى أهميّة هذا الحوار في المراسلات التي دارت بين الأمير عبد العزيز بن سعود والشيخ كاشف الغطاء؛ حيث كتب الأمير عبد العزيز رسالة (نقل قسماً من مضامينها كاشف الغطاء)، وردَّ عليها برسالة أشبه ما تكون بالمناقشة الشاملة لما وردَ من الشبهات التي أُثيرتْ حول الفكر الإمامي، وممَّا لم يرد منها أيضاً.

وقد تميّز منهج كاشف الغطاء في رسالته بسمات، أهمّها:

١ ـ امتازت الرسالة بالموضوعيّة، والصدق، والواقعيّة، وغزارة المعرفة، وقوّة الاستدلال؛ حيث نهج مؤلّفها منهجاً عقلانيّاً متكاملاً ردَّ فيه المنطق بالمنطق، والحجَّة بالحجَّة والبرهان، ممَّا جعلها ـ على رغم أنّها نافت على القرنين من الزمن ـ رسالةً فتيّةً ما زالتْ حجيّتها قائمة، طريّة الأفكار، متينة المباني، عَذْبة المُحاججة، خالية ممّا اعتاد عليه المؤلّفون في مثل هذه الميادين من الخروج عن ذريعة العلم إلى ذرائع أُخرى لا تمتُّ إلى نهج المعرفة بصلة.

٢ ـ يبدو أنَّ كاشف الغطاء كان يدرك أنَّ الفتوحات الجديدة تهدّدُ أمن المنطقة بشكل عام، وستصل إلى العراق لضعف السلطة الحاكمة فيه، وانشغالها

---

(١) طبع كتاب «العبقات العنبريّة» للمرّة الأولى مُحَقَّقاً سنة ١٩٩٨م.

بالمشاكل الداخليّة وغيرها؛ لذلك كان حديثُه في الردّ حديثاً حاول من خلاله إقناع عبد العزيز بن سعود ـ بما استطاع من إمكانات ـ بالرجوع عن معتقداته الدينيّة، والتخلّي عن نظريّته المذهبيّة التي اعتنقها وتبنّاها ـ على فرض الإمكان ـ، أو احترام وجهات النظر المتغايرة ـ على فرض آخر ـ؛ لذلك كان خطابُهُ إليه خطاباً يُشعر أنّه خطاب صادر من سلطة دينيّة عُليا إلى سلطة قتاليّة عُليا.

وبالرغم من احترامه المتزايد للأمير الفاتح إلاّ أنّ رسالته لم تخلُ من واقعيّة في التعامل مع هذا الأمير، فقد حدَّثه فيها باللغة المباشرة التي يفهمها هذا الأمير العربيّ. وكان يعزو تبنّيه للمذهب الوهّابي إلى عدم خبرته في اختيار المذهب الذي عليه أن يتبنّاه ويناضل من أجله، بسبب ضآلة معرفته الفكريّة.

٣ ـ تناولت الرسالة ردّاً للشبهات التي نشرها الوهّابيون، وقد رتَّبها على مقدّمة، وفصول، ومقاصد، وكان لا يملُّ من تكرار كلمة «أخي»، و «أقسم عليك» ـ نهاية كلّ موضوع ـ بعد بيان النتيجة التي يتوصّل إليها بعد إيراده جملة من الأحاديث النبويّة لعلَّ ذلك يكون سبباً لمراجعة المُعتقد من جديد.

٤ ـ استخدم في طيّات رسالته أسلوب الموعظة، وإلفات النظر إلى أنّ النفوذ الدنيويّ مهما بلغ فإنّه سيؤول إلى الزوال. وقد أطنب في اختيار بعض المرويّات المتعلّقة بنهاية الإنسان وفنائه في الفصل الثالث، تحت عنوان: «في حياة سائر الموتى».

٥ ـ نسب كاشف الغطاء نفسه في رسالته هذه إلى أنّه من تلامذة مدرسة بغداد. وقد ذكر الشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء أنَّ الشيخ جعفراً أراد بذلك أنْ يظهر بمظهر أهل السُنّة ليتوصّل إلى أهدافه، ويُقلع عبد العزيز عمَّا هو عليه. ولم يكن هذا الرأي موافقاً للصواب لعلم الأمير عبد العزيز بهويّة كاشف الغطاء، ومخاطبته الصريحة في رسالته التي انتقد فيها زوّار قبر الإمام عليّ في النجف.

ويمكن الاستنتاج أنَّ العلاقة التي يشير إليها صاحب «العبقات» نفسه بين الشيخ كاشف الغطاء، وابن عبد الوهّاب يمكن أن تكون ممتدّة إلى أيّام تتلمذ الشيخ محمّد بن عبد الوهّاب على يد شيوخ الحنابلة البغداديين. فأراد كاشف

الغطاء أنْ يظهر أمام عبد العزيز بن سعود أنّه بمنزلة شيخه الذي نهض بأعباء الدفاع عن فكره، ونشر معتقداته بالقوّة.

٦ ـ لمّا كان المذهب الوهّابي يعتمد على صحاح الأحاديث السُنّية، فقد التزم كاشف الغطاء في نقل أحاديثه، ومناقشاته على الصحاح فقط، ولم يتطرّق إلى غيرها من كتب الحديث. كما نقل أقوال كبار علماء السُنّة في بحثه، ولم يتطرّق إلى كتب الحديث الشيعيّة سوى ما نقله فقط عن كتاب الاحتجاج للشيخ الطبرسي في حديث عام يتّصل بالمجادلة بين النبيّ محمّد ﷺ وبعض المناوئين له من العصر الجاهلي.

٧ ـ كُتبتْ هذه الرسالة في سنة ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م؛ أي في حياة الإمام السيّد مهدي بحر العلوم الذي تُوفّيَ سنة ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م. وكانت المرجعيّة ـ في هذه المرحلة ـ مقسّمة بين عدد من المجتهدين؛ حيث تخصّص بحر العلوم بالتدريس، وكاشف الغطاء بالزعامة والفُتيا، والشيخ حسين نجف بالصلاة جماعة، ممّا يُبرهن على انحصار مرجعيّة التقليد السياسيّة والدينيّة في شخص كاشف الغطاء دون غيره من المجتهدين الكبار من طبقته.

* * *

كان الشيخ كاشف الغطاء مدركاً المتغيّرات السياسيّة، والصراع القائم بين القُوى المتنازعة على الخليج، فحاول أنْ يُظهر النجف مركزاً مستقلاً عن مدار صراعات دول المنطقة، وأنْ يجنّب المرجعيّة الدينيّة العليا الدخول في هذا الصراع.

ومن هنا يمكن تفسير العلاقة الودّية التي أقامها مع شيخ الوهّابية بالمكاتبة مرّة، وبتقديم الهدايا مرّة أُخرى، ونجاحه في حفظ الكيان الشيعيّ بعيداً عن المتغيّرات السياسيّة التي شهدتها المنطقة.

وبمقدار النجاح الذي حقّقه كاشف الغطاء مع الشيخ عبد الوهّاب، فإنّه أرادَ أنْ ينحو المنحى نفسه مع وريثه الأمير عبد العزيز بن سعود، وهو وإنْ نجحَ في تحييده قرابة العقد من الزمن إلاّ أنّ ذلك لم يمنع ابن سعود من غزو مدينة كربلاء

المقدّسة عام ١٢١٦هـ، ونهب الكنوز المودعة في حرم الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام، وقتل أهالي البلدة قتلة مأساويّة شنعاء.

إنَّ الهجوم الوهّابي على كربلاء عام ١٢١٦هـ لم يكن مستهدفاً الشيعة بمقدار ما كان يهدف إلى إحلال الفوضى في الإمبراطوريّة العثمانيّة، وتهديد سلامتها وسرقة الخزائن التي ملأها ملوك الهند والفرس بنفائس الجواهر في النجف وكربلاء.

وبعد واقعة كربلاء عام ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م أحسَّ كاشف الغطاء بضرورة تحصين النجف، وتعبئة الأهالي للدفاع عنها؛ فتهيَّأت لذلك مراكز تدريب قتاليّة خارج البلدة يشرف عليها الشيخ كاشف الغطاء بنفسه. كما تمَّ تعيين عدد من المقاتلين للحراسة، وتنظيم المجاميع الأُخرى للتصدّي للغزو الخارجي من وراء الأسوار[1].

وقد فشلت الهجمات الوهّابية الخمسة التي تكرّرت على النجف، والتي كان أعنفها الهجمة التي حدثت أواخر عام ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م؛ حيث دافع النجفيّون دفاعاً عنيفاً، ولم تستطع القوّة الغازية من اقتحام المدينة.

وفي عام ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م تعرّضت النجف لغارة مفاجئة، إلاّ أنَّ ثقة النجفيّين بممارساتهم القتاليّة وتحصّنهم بالأسوار والأسلحة جعلهم يتغلّبون هذه المرّة على القوّة المُهاجمة بسهولة.

«منهج الرشاد» النسخة الخطّيّة

وهي نسخة مكتوبة في حياة المؤلّف، وقريبة لزمن التأليف، كتبها العلاّمة الشيخ قاسم الدلبزي سنة ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م، وعليها تعليقٌ له.

---

(١) انتدب كاشف الغطاء الصدر الأعظم محمّد حسين خان (وزير فتح علي شاه) لبناء سور محصّن للمدينة، وفعلاً فقد بدأ العمل ببنائه سنة ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م، واستمرّ العمل فيه ما يقارب العقد من الزمن، فأصبحت النجف بسببه بلدة محصّنة يصعب اقتحامها؛ حيث تضمّن خندقاً عميقاً، وأبراجاً، ومراصد، ومخافر، وجُعلت في طبقاته منافذ مختلفة لوضع فوهات المدافع والبنادق.

وقفيه

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله الذي تفرد بالأزلية والقدم واشتق نور الوجود من ظلمة العدم واستن
الشرع [illegible] وفضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأمم وأنزل القرآن فيه آيات
محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات وحذر عن اتباع الملاذ والشهوات
وأمر بالوقوف عند الشبهات وأنذر عن متابعة الآباء والأمهات وأسبغ [illegible]
على من قدمه على جميع أنبيائه وفضله على كافة أصفيائه محمد المختار صلى الله عليه [illegible]
[illegible] أما بعد فقد ورد إلى [illegible]
[illegible] الطالب من الله [illegible]
على كلمات [illegible] بالمعروف آمرا وعن المنكر ناهيا زاجرا [illegible]
بعبارة [illegible] الشيخ عبد العزيز بن سعود [illegible]
[illegible]
[illegible] بالميل إلى [illegible] الآباء والأجداد [illegible]
[illegible] لقد تخلصت من [illegible]
[illegible] دار العزة والوقار [illegible]
[illegible] في هذه الديار [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] الدنيا والآخرة [illegible]

الصفحة الأولى من مخطوطة «منهج الرشاد»

طع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله وفي الحديث ان بعث الجنة من

الالف واحد فانت أحرى لنفسك والمهتدي من هداه الله اتقى قولا بالحجج

الوهمية مشتركة بيننا فالذي عليك الا تأخذ في حجية الآباء والأجداد في

الطريقة المأنوسة دون العباد بالنظر بعين البصيرة ولحفظ الشريعة ولما

فاني أخشى عليك من حب الانفراد حتى لا تكون كبعض الآحاد فان الاسلام

نزل جديدا وسيعود [illegible] في [illegible]

وانا أخشى عليك من حجة الرجال [illegible] عن هذه [illegible]

شبهات لم تستطع ردها وخيالات لم تبلغ حدها [illegible]

[illegible] اليوم فليس لك [illegible] بالاخبار

بطريقة الخلفاء الابرار [illegible] نظرك واسعة [illegible]

التقليد والاخذ عن [illegible] التابعين والمتمذهبين ثم ما ذكرت [illegible]

مع القليل من المكلفين لا من المستثنى فان اكثر اهل الارض كفار من يهود و

ومشركين وجاحدين وغيرهم حتى ان نسبة اهل الملين الى سائر الاقاليم

اقل قليل فنحن نقول بان من اطاع اكثر الخلق ضال لان اكثر الناس من اهل الكفر

والضلال وان الشكور قليل وان بعث اهل الجنة من الالف واحد ولو استندت

في هذا [illegible] الى حديث الفرق في وحدة الفرقة الناجية زيادة [illegible] على

الفرقة والحق انه لا ملازمة بين القلة والكثرة وبين الحق والباطل فكم من قليل

هدي الى الصواب وكثير حق عليه المؤاخذة والعقاب [illegible] في

هذا الباب [illegible] الارباب [illegible]

[illegible]

[illegible] في سنة [illegible]

[illegible]

الصفحة الأخيرة من مخطوطة «منهج الرشاد»

وهذه النسخة ـ كما يظهر ـ مطابقة للأصل تمام المطابقة، سليمة العبارة، صحيحة، وهي تتكوّن من (٥٥) صفحة، كُلُّ صفحة تحتوي على (٢٣) سطراً عدا الصفحة الأولى، ويتكوّن السطر الواحد ـ غالباً ـ من (١٢) كلمة.

أمّا ناسخُها العلاّمة الدلبزي فهو من العلماء المجهولين الذين اختفى تراثهم، ويبدو أنّه من تلامذة المؤلّف كاشف الغطاء، والسيّد مهدي بحر العلوم، كما يظهر من بعض المخطوطات أنّه كان حيّاً سنة ١٢٣١هـ/١٨١٦م. واستظهر بعضهم أنّه مات بالطاعون سنة ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م. وولده الشيخ حسين الدلبزي المُتوفّى بالطاعون أيضاً سنة ١٢٤٧هـ من العلماء المشهود لهم بالفضل، وغزارة العلم، والأدباء الكبار الذين احتفظت المجاميع الأدبيّة بنماذج من قصائدهم البليغة الجزلة.

وعلى هذه النسخة (تملُّكُ) جملة من الأعلام؛ منهم: الشيخ سليمان العاملي، والسيّد صدر الدين الصدر (صهر المؤلّف)، والعلاّمة السيّد عبدالله بن محمّد رضا شبّر، والشيخ محمّد رضا بن عليّ بن محمّد جعفر الاسترابادي.

(وهذه النسخة الخطّية هي من مقتنيات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، برقم ٣٨٩٢ من تعداد الكتب الخطّية).

النسخة المطبوعة

أمّا النسخة الثانية، فهي نسخة طُبعت بالمطبعة الحيدريّة في النجف، في شهر شعبان سنة ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م، باهتمام العلاّمة السيّد عبّاس التبتي، وتقع في (٨٢) صفحة.

وعلى صفحتها الأولى كُتبَ هذا النصّ: «كتاب «منهج الرشاد لمن أراد السداد» من تأليف واحد الدهور، ونادرة العصور، أفضل الربّانيين، وأعظم أساطين الدين، شيخ الطائفة الشيخ الأكبر (الشيخ جعفر النجفي) عطّر الله مرقده، صاحب كتاب «كشف الغطاء»، و «شرح القواعد»، و «الحقّ المُبين»، وغيرها من المؤلّفات الشهيرة، المُتوفّى في رجب سنة ثمانية وعشرين بعد الألف والمائتين هجريّة.

كتبه بعنوان جواب مكتوب، كتبه إليه بعض أمراء نجد من أبناء سعود، الذين هم الدُعاة إلى مذهب الوهّابيّة. وهو كتابٌ جليل لم يُكتبْ مثله في هذا الباب.

وكان طبعُه ونشره باتّفاق حضرة حُجَّة الإسلام، ومرجع الأنام، وحيد الناس، سيّدنا الأجلّ الحاجّ سيّد عبّاس التبتي مُدَّ ظلُّه العالي. طُبعت بمطبعة الحيدريّة في النجف الأشرف سنة ١٣٤٣هـ».

وقد ذكر الطهراني أنَّ «منهج الرشاد» هو أوّل كتاب كُتبَ في الردّ على الوهابيّة، ووصفه بأنّه حوى حقائق علميّة، وحججاً دامغة.

أمَّا العلاّمة الأمين فذكر أنَّ هذه الرسالة هي أوّل رسالة كتبتْ في هذا الموضوع (إلاّ أنْ يكون سبقها كتاب سليمان بن عبد الوهّاب أخي محمّد بن عبد الوهّاب). وامتدح مؤلّفها وقال: «إنَّها حوت كثيراً ممّا لم يحوِه بعضُ ما تأخَّر عنها، فهي من مفاخر ذلك العصر».

جواب الأمير عبد العزيز بن سعود

عند وصول الرسالة إلى الأمير عبد العزيز بن سعود كتب إلى مؤلّفها الشيخ جعفر كاشف الغطاء هذه الرسالة المختصرة، وهذا نصُّها:

يصل الخط إنْ شاء الله إلى عبدالله جعفر

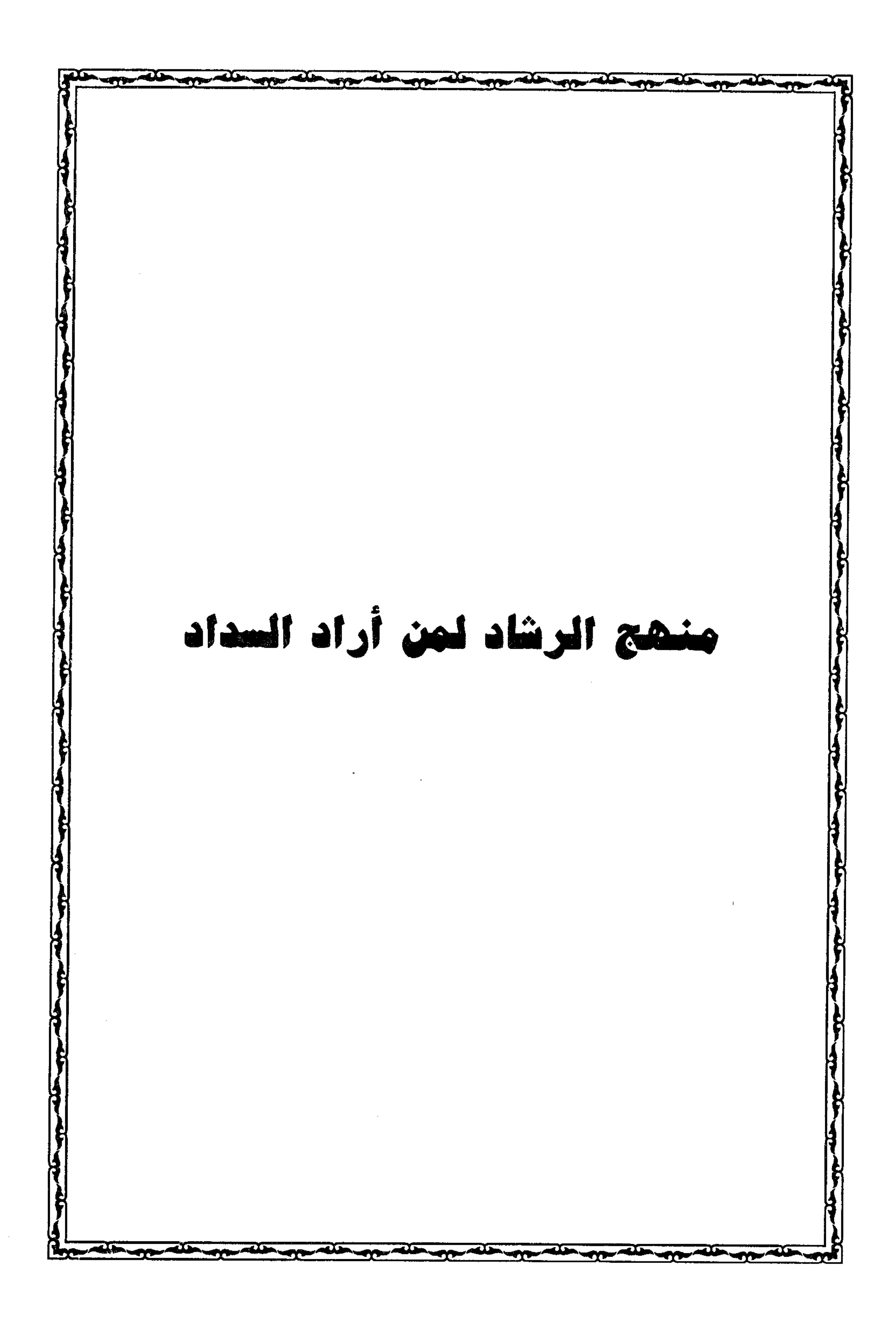
راعي «المشهد»

بسم الله الرحمٰن الرحيم

وبه نستعين

السلام التامّ، والتحيّة والإكرام، يُهدى إلى سيّد الأنام، محمَّد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ثمّ ينتهي إلى جناب الأجلّ الأكرم عبدالله جعفر سلّمه الله مِنْ كُلِّ شرّ، وأسكنه يوم القيامة جنّة المُستقرّ، وأعاذهُ مِن عذاب النار الذي يحذر.

أمَّـا بعـد، فـوصـلَ كتابُك، وفَهمنا ما تَضَمَّنَهُ مِنْ خطابك، وما ذكرتَ أنَّه بلغَكَ عنّـا مِنْ حُسـن الطـريقـة، واستقامة السيرة من الصلاة، والزكاة، والصيام، والحجّ، وغير ذلـك مِنْ شرائط الإسلام، فالحمدُ لله الذي هدانا للإسلام، وجنَّبنا مـن عبـادة الأصنـام، حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه، كما يُحبُّ ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجههِ وعِزِّ جلاله.



منهج الرشاد لمن أراد السداد

مقدّمة المؤلّف

الحمد لله الذي تفرّد بالأزليّة والقِدم، واشتقّ نور الوجود من ظلمة العدم، وأسّس قواعد الشرع على وفق المصالح والحِكم، وفضّل أمّة محمّد ﷺ على سائر الأمم، وأنزل القرآن فيه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأُخر متشابهات، وحذّر عن اتّباع الملاذ والشهوات، وأمرَ بالوقوف عند الشبهات، وأنذر عن متابعة الآباء والأمّهات. والصلاة والسلام على من قدَّمه على جميع أنبيائه، وفضَّلهُ على كافّة أصفيائه، محمّد المختار، صلّى الله عليه وعلى آله، ما أظلم ليل، وأضاء نهار.

أمّا بعد، فقد ورد ـ إلى المقصّر مع ربّه، التائب إليه من ذنبه، الطالب من الله السداد، جعفر أقلّ طلبة أهل بغداد ـ كتاب كريم، مشتمل على كلماتٍ كالدرّ النظيم، ممّن لم يزل بالمعروف آمراً، وعن المنكر ناهياً زاجراً، الآمر بعبادة المعبود، الشيخ عبد العزيز بن سعود[1]. فلمّا نظرته وتدبّرتُه وتأمّلته وتصوّرته، خلوتُ في زاويةٍ من الدار، وتصفّحته تصفّح الإنصاف والاعتبار. وقلتُ متّهماً لنفسي بالميل إلى العصبيّة والعناد، والركون إلى ما عليه الآباء والأجداد: يا نفس اعرفي قدر دنياك، واحذري شرّ من أغوى أباكِ، لقد تخلّيتِ عن نعيم الدنيا بحذافيرها، وقنعت بقليلها، ولو بقرص شعيرها، وتجنّبت دار العزّة والوقار، واخترتِ العزلةَ والخمولَ في هذه الديار.

---

(١) عبد العزيز محمّد بن سعود (أمير آل سعود في دولتهم الأولى)، ولد سنة ١١٣٢هـ/ ١٧٢٠م، ووُلّي بعد وفاة أبيه عام ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م، وكانت عاصمة حكمه الدّرعية بنجد، واتّسعت الفتوحات في أيّامه، وامتدَّ مُلكُهُ من شواطئ الفرات إلى رأس الخيمة وعُمان، ومن الخليج الفارسي إلى أطراف الحجاز وعسير.
اغتاله رجلٌ من أهل العمادية، من ديار الجزيرة، في جامع الدرعيّة، سنة ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م. الأعلام للزركلي، ج٤، ص ٢٧.

فلو كنتِ في كبار البلدان، من ممالك بني عثمان، أو في بعض بلدان فارس وإيران، لجاءت إليكِ الدنيا من كلّ جانب ومكان، ونلتِ من النعيم ما لم ينله إنسان، فاحذري أن تكوني مع الأعراض عن هذه النعم الفاخرة، ممّن قد خسر الدنيا والآخرة.

فلمّا شممتُ منها رائحة التصفية، ورأيت أنّ نسبة المذاهب ـ لولا الله عندها ـ على التسوية، وجهتها إلى الكشف عن حقيقة الجواب عن الشُبهِ الموردة في ذلك الكتاب، ورأيت أن أشرحَ في الحال رسالةً على وجه الاختصار، مستمدّاً من فيض الواحد القهّار، وسمّيتها: «منهج الرشاد لمن أراد السداد».

فأقسم عليك ـ بمن جعلك متبوعاً بعد أنْ كُنتَ تابعاً، ومطاعاً بعد أن كنتَ لغيرك مطيعاً سامعاً، وأعزَّك بعدما كنتَ ذليلاً، وكثَّر جمعك بعدما كان نزراً قليلاً ـ أن تنظر ما رسمتُه سطراً سطراً، وتمعن في تحقيق ما رقمته نظراً وفكراً، متوحّشاً من الناس وقت النظر، متحذّراً من النفس الأمّارة كلّ الحذر، طالباً من الله كشف الحقيقة، سالكاً في المناظرة واضح الطريقة، فلعلّه يظهر أنّه ليس بيننا نزاع، فنحمد الله على الاتّفاق والاجتماع. وقد رتّبتُها على مقدّمة، ومقاصد، وخاتمة.

أمّا المقدّمة، فتشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول

في أنَّ الأفعال والكلمات تختلف باختلاف المقاصد والنيَّات

فمن قال: يد الله، وعين الله، وجنب الله، وأراد الجوارح على نحو ما في الأجسام، أو قال: إنّ الله على العرش استوى، أو في جهة الفوق، وأراد الحلول والاختصاص التام، أو أسند الرحمة إليه، أو الغضب، وأراد رقّة القلب، أو ثوران النفس على نحو ما يعرف بين الأنام، أو أسند الرزق إلى المخلوق، أو دعاه، أو استغاث به على نحو ما يسنده إلى الملك العلّام، كان خارجاً عن مقالة أهل الإسلام.

وأمّا من قصدَ بها معاني أُخر، فليس عليه من بأس ولا ضرر. وليس هذا كصنيع المشركين، فإنّ الفرق ظاهر، كما سنبيّنه كمال التبيين، فالمستغيث بالمنسوب مستغيث بالمنسوب إليه، والمستجير بالمكان مستجيرٌ بمن سلطانه عليه.

فمن أراد الاستجارة والاستغاثة بزيد فله طريقان:

أحدهما: أن يهتف باسمه.

وثانيهما: أن ينادي بصفاته، أو مكانه، أو خدمه.

وثانيهما أقربُ إلى الأدب، وأرغب لطباع أرباب الرُتب، فلا يكون المستغيث ببيت الله، أو بصفات الله، أو برسل الله، أو المقرّبين عند الله، إلاّ مستغيثاً بالله؛ فكلَّما دعا مخلوقاً مقرّباً عند الله، أو استغاث به قاصداً بحسن التعبير الاستغاثة باللطيف الخبير، فليس عليه بأسٌ في ذلك، بل هو سالكٌ في الآداب أحسن المسالك.

وكذلك من أسند تلك الأشياء لمجرّد الربط الصوري، لا على قصد التأثير الحقيقي، كما يقال: «أنبتَ الربيعُ البقل»، والمُنْبِتُ هو الله، و «بنى الأمير القصر»، والباني ظاهراً بناه[1].

(١) في المطبوع: «سواه».

فإطلاق السيّد والمالك على غير الله، «وإضافة العبد والمملوك في الأحرار إلى غير الله»[1]، إن أُريد بها الملكيّة الحقيقيّة، كان خروجاً عن الطريقة الشرعيّة، وإلاّ لم يكن في ذلك بأسٌ بالكلّية.

ولهذا ورد في الأخبار النبويّة إطلاق السيّد على غير الله:

روى أبو هريرة[2] عن النبيّ ﷺ أنّه قال: أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة[3].

وعن أبي سعيد الخدري[4] عن النبيّ ﷺ أنّه قال: الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة[5].

وعن عليّ عليه السلام، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: أبو بكر وعمر سيّدا كهول أهل الجنّة[6].

وعن فاطمة عليها السلام: أنّ النبيّ ﷺ أخبرني أنّي سيّدة نساء العالمين. رواه الترمذي[7].

وروى أبو نعيم الحافظ، قال: قال النبيّ ﷺ: ادعوا لي سيّد العرب عليّاً.

وفي «حلية الأولياء» أنّه قال النبيّ ﷺ لعليٍّ: مرحباً بسيّد المؤمنين[8].

---

(١) لا توجد في المخطوطة.

(٢) أبو هريرة: عبد الرحمٰن بن صخر الدوسي اليماني، تُوفّي سنة ٥٧هـ/ ٦٧٧م في المدينة.

(٣) سنن الترمذي (كتاب المناقب) حديث ٣٥٤٨؛ صحيح مسلم (كتاب الفضائل)، حديث ٤٢٢٣؛ مسند أحمد (باقي مسند المكثرين)، حديث ١٠٥٤٩؛ سنن ابن ماجه (كتاب الزهد)، باب ٣٧؛ سنن الدارمي، المقدمة، باب ٨.

(٤) أبو سعيد الخدري: سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري، تُوفّي في المدينة سنة ٧٤هـ/ ٦٩٣م، وهو من الصحابة، ورتبهم أسمى مراتب العدالة والتوثيق.

(٥) سنن الترمذي (كتاب المناقب)، حديث ٣٧٠١، ٣٧١٤؛ ابن ماجة (المقدّمة)، حديث ١١٥؛ مسند أحمد (باقي مسند المكثرين)، حديث ١٠٥٧٦، ١١١٦٦، ١١١٩٢، ١١٣٥١. ورواه أيضاً في (باقي مسند الأنصار)، حديث ٢٢٢٤٠، ٢٢٢٤١.

(٦) سنن الترمذي (كتاب المناقب)، حديث ٣٥٩٧، ٣٥٩٩. ومثله حديث ٣٥٩٨؛ سنن ابن ماجه (المقدّمة)، حديث ٩٢، ٩٧؛ مسند أحمد بن حنبل (مسند العشرة المبشّرين بالجنّة)، حديث ٥٦٨.

(٧) سنن الترمذي، حديث ٣٨٢٨.

(٨) حلية الأولياء، ج١، ص٦٦.

وعن أبي بكرة عن النبيّ ﷺ أنّه قال للحسن: ابني هذا سيّد[1].

وعن عائشة[2] عن النبيّ ﷺ أنّه سأل ابنته الزهراء، فقال لها: أما ترضين أن تكوني سيّدة نساء العالمين، أو نساء المؤمنين؟[3].

وروي ذلك عن الصحابة أيضاً؛ فعن جابر[4] أنّ عمر كان يقول: أبو بكر سيّدنا، وأعتقَ سيّدنا (يعني: بلالاً)، رواه البخاري[5].

وعن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: أتقولون هذا شيخ قريش وسيّدهم؟[6].

وعن عائشة عن النبيّ ﷺ أنّه قال: أنا سيّد ولد آدم، وعليّ سيّد العرب.

وروي عن النبيّ ﷺ أنّ سادات النساء أربعة: خديجة، وفاطمة، وآسية، ومريم.

وعن عليّ عليه السلام: أنا سيّد البطحاء.

إلى غير ذلك ممّا يزيد على التواتر.

فالجمع بين ذلك وبين ما روي في الكتب المُعتبرة أنّه جاء وفدٌ إلى النبيّ ﷺ، فقالوا: أنت سيّدنا، فقال: السيّد الله[7]. باختلاف القصد في معنى السيّد.

---

(١) البخاري (كتاب المناقب)، حديث ٣٣٥٧، ٣٤٦٣. وكذلك رواه في (كتاب الصلح، حديث ٢٥٠٥؛ والترمذي (كتاب المناقب)، حديث ٣٧٠٦.

(٢) عائشة بنت أبي بكر التيميّة، أمّ المؤمنين، تُوفّيت في المدينة سنة ٥٨هـ/ ٦٧٨م.

(٣) صحيح البخاري (كتاب المناقب)، حديث ٣٣٥٣؛ صحيح مسلم (فضائل الصحابة)، حديث ٤٤٨٦، ٤٤٨٨؛ الترمذي (كتاب المناقب)، حديث ٣٨٠٧؛ سنن ابن ماجه (ما جاء في الجنائز)، حديث ١٦١٠؛ مسند أحمد (باقي مسند الأنصار)، حديث ٢٣٣٤٣، ٢٤٨٢٩، ٢٥٢١٠.

(٤) جابر بن عبدالله بن عمرو الأنصاري، صحابي، أقام في المدينة، وتُوفّي فيها سنة ٧٨هـ/ ٦٩٧م.

(٥) صحيح البخاري (باب مناقب بلال بن رباح)، ج٤، ص ٢١٧، حديث ٣٤٧١؛ سنن الترمذي (كتاب المناقب)، حديث ٣٥٨٩.

(٦) صحيح مسلم (باب فضائل سلمان، وصُهيب، وبلال)، ج٤، ص ١٩٤٧.

(٧) سنن أبي داود (كتاب الأدب)، حديث ٤١٧٢؛ مسند أحمد (مسند المدنيّين)، حديث ١٥٧١٧، ١٥٧٢٦. وجاء فيه: «أنت سيّد قريش، فقال النبيّ ﷺ: السيّد الله».

وكـذا مـا وردَ من المنع من قول السيّد: عبدي وأَمَتي، فقول العبد لمولاه: ربّي، مع وجود ذلك في كلام يوسف[1].

وكـذلك الاستغاثة بغير الله، إن أُريد بها الصورة، أو من باب استغاثة العبد بقصـد المعبود، فلا بأس بها، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥]، وكذا قوله: ﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾ [القصص: ١٨].

وكـذلـك إطـلاق الربّ في بعض المعاني على غير الله كفر، مع أنّ الصدّيق يـوسف عليه السلام قـال: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، وكذلك طلب الرّزق من غيـر الله علـى وجـه الحقيقـة كفـر، وقال الله تعالى: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ [النساء: ٥]، وقولُهُ: ﴿يَا أَيُّها الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُرُّ﴾ [يوسف: ٨٨]، ونحوه: ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧٧].

ومـن ذلـك قـول القائـل: لـولا (فـلان) لكـان (كذا). فإن أراد أنّه الفاعل المختار، دخل في أقسام الكفّـار، وإن أراد العليّـة الصورية بمجرّد رابطة جزئيّة، لم يكن عليه بأس بالكلّية.

ولـذلـك ورد عـن سيّـد الأنـام أنّـه قـال: لولا قومك حديثو عهد بالإسلام لهدمتُ الكعبة[2].

وعن سفيان الثوري أنّه قال: لولا هذه الدنيا لكان الملوك صعاليك.

وعن عمر أنّه قال لعليّ عليه السلام لمّا أشار عليه بعدم أخذ حلي الكعبة: لولاك لافتضحنا.

---

(١) إشارة إلى قول يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّه رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]؛ وقوله أيضاً: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠].

(٢) عن عائشة، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عائشة، لولا أنَّ قومَكِ حديثو عهد بشرك لهَدمتُ الكعبة، فألزقتُها بالأرض». صحيح مسلم (كتاب الحجّ)، حديث ٢٣٧٠؛ البخاري (كتاب العلم)، حديث ١٢٣؛ وكذلك رواه في (كتاب الحجّ): ـ حديث عهدهم بالجاهليّـة ـ، حديث ١٤٨٠، ١٤٨٣.

وعن النبيّ أنّه قال لعليّ: لولا أن تقول الناس فيك ما قالت النصارى لقلتُ فيك مقالاً . . .

وورد في صحيح الأثر، عن الفاروق عمر أنّه قال: «لولا عليٌّ لهلكَ عُمر». ولم ينكر عليه أحدٌ من الصحابة. . . إلى غير ذلك.

وكذا الحلف بغير الله إنْ أُريدَ به الحلف على جهة إثبات الدعوى، كان خارجاً عن الشريعة، وإلاّ لم يكن قسماً على الحقيقة.

والحديث الذي فيه: «من حلف بغير الله، فقد أشرك»[1] محمول على حقيقة الحلف، وسيجيء تفصيله في المقصد الخامس. وكذلك إطلاق اليد، والرِجل، والقدم، وغير ذلك بالنسبة إلى الله على الحقيقة، لا يُوافق الطريقة من غير تأويل، لم يتوهّمه سوى نزر قليل.

مع أنّه روى أبو هريرة عن النبيّ ﷺ أنّ النار لا تمتلئ حتى يضع الله رجله فيها[2]. وعن أنس عن النبيّ ﷺ أنّ النار لا تمتلئ حتى يضع الله قدمه فيها[3].

ومن ذلك نسبة الضحك والعجب إلى الله تعالى، فإنَّ إرادة الحقيقة بعيدة عن الطريقة؛ مع أنّ أبا هريرة روى عن النبيّ ﷺ أنّه قال: لقد عجب الله، أو ضحك الله، عن فلان و فلانة، ونقل قصّته[4].

فباختلاف المعاني اختلفت المباني، وكذلك في مسألة الأفعال، فإنّها شبيهة الأقوال، فإنَّ القيام للتواضع قد ورد النهي عنه.

---

(١) سنن الترمذي (كتاب النذور والأيمان)، حديث ١٤٥٥.

(٢) صحيح البخاري (كتاب تفسير القرآن)، حديث ٤٤٧٢؛ صحيح مسلم (كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها)، حديث ٥٠٨٢.

(٣) صحيح البخاري (كتاب التوحيد)، حديث ٦٨٩٥؛ صحيح الترمذي (كتاب صفة الجنّة)، حديث ٢٤٨٠، ٢٤٨٤.

(٤) صحيح البخاري (كتاب المناقب)، حديث ٣٥٢٤؛ صحيح مسلم (كتاب الأشربة)، حديث ٣٨٢٩، ٣٨٣٠؛ سنن الترمذي (باب تفسير القرآن)، حديث ٣٢٢٦.

روى أبو أسامة عن النبيّ ﷺ أنّه خرج مُتّكئاً على عصى، فقمنا له، فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم بعضهم لبعض، رواه أبو داود[1].

وروى ابن عمر عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: لا يقوم الرجل من مجلسه، ثمّ يجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا[2].

وعن أنس أنّه قال: لم يكن شخصٌ أحبَّ إليهم من النبيّ ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا، لما يعلمون من كراهيته لذلك، رواه الترمذي، وقال: هذا خبرٌ صحيح[3].

فينبغي أن ينزل المنع على قيام خاص؛ كأن يقوم منحنياً على نحو ما يصنع الأعاجم. وفي الخبر ما يرشدُ إليه اختلاف الأغراض والمقاصد.

كما روي عن معاوية أنَّ النبيَّ ﷺ قال: مَنْ سرَّهُ أنْ يتمثّل له الرجال قياماً، فليتبوأ مقعده من النار[4]. وحديث: «ولا يقوم الرجل»، ظاهره اختصاص الجالس مجلسه، وربّما ينزل ما دلّ على كراهته كذلك على نحو كراهته لملاذ الدنيا، وزهده في القيام كزهده في مباحاتها.

فقد روى أبو سعيد الخدري أنّ سعداً جاء على حمار، فلمّا دنا من المسجد، قال النبيُّ ﷺ للأنصار: قوموا إلى سيّدكم[5].

وعن عائشة قالت: كنت جالسةً متربّعة، فجاء النبيُّ ﷺ فأردتُ القيام، كما هي عادتي عند دخوله، فمنعني[6]. فإنَّ فيه دلالة على أنَّ ذلك كان معتاداً لها، ولعلَّ هذا المنع كان لسبب خاص، أو كزهد الدنيا، وكسر النفس.

---

(١) سنن أبي داود (كتاب الأدب ـ باب قيام الرجل للرجل)، حديث ٥٢٣٠.
(٢) مسند أحمد، ج٢، ص١٧.
(٣) سنن الترمذي (كتاب الأدب ـ باب كراهية قيام الرجل للرجل)، حديث ٢٦٧٨.
(٤) سنن أبي داود (كتاب الأدب)، حديث ٤٥٥٢؛ سنن الترمذي (كتاب الأدب)، حديث ٢٦٧٩.
(٥) المصدر نفسه، حديث ٥٢١٦.
(٦) المصدر نفسه، حديث ٥٢١٧.

وروي عن النبيّ ﷺ أنّه لمّا قدم جعفر مبشّراً بفتح خيبر، قام، فقال: ما أدري بأيّهما أنا أشدّ فرحاً، أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر[1].

وقيام الاحتمال في هذه الأخبار لا يمنع الاستناد إليها، كما لا يخفى على أولي الأنظار، مع ما ورد في الأخبار الكثيرة، من استحباب تعظيم المؤمن، ويدخل في تعظيم شعائر الله على نحو ما ورد في التفاسير المعتبرة.

وعن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ كان يجلس معنا في المسجد يحدّثنا، فإذا قام قمنا لقيامه، حتى نراه دخل بعض بيوت أزواجه.

وعن واثلة[2] قال: قال رسول الله ﷺ: إنّ للمسلم لحقّاً إذا رآه أخوه تزحزح له، رواه البيهقي في شعب الإيمان[3].

ولعلّ هذا مبنيّ على أنّ التواضع تختلف أقسامه باختلاف الأزمان، وكيف كان، فالذي يظهر بعد التأمّل التامّ اختلاف الأقوال والأفعال باختلاف المقاصد. ومن ذلك اختلاف أحوال الزُّهّاد. فبعض ترك المآكل والملابس الحسان، واقتصر على الجشب والخشن، وبعضهم يأكل من أطيب المأكول، ويلبس من أنعم الملبوس. وباعتبار اختلاف النيّات دخل العَمَلان في قسم العبادات.

---

(١) علّق العلاّمة الشيخ قاسم الدلبزي (ناسخ الكتاب) على هذا الموضوع بقوله:
«لقائل أنْ يقول: إنَّ حديث (جعفر) ليس فيه دلالة على المطلوب لأنَّ قول النبيّ ﷺ: «ما أدري بأيّهما أنا أشدُّ فرحاً» لا دلالة فيه لاحتمال أنْ يكون من جمعة الفرح؛ يعني: ما أدري فرحي لقدوم جعفر، أو لفتح خيبر؛ لأنَّ مطلوبنا القيام، وهذا لا دلالة فيه على أنَّ القيام كان من النبيّ لجعفر من جمعة فرحه بفتح خيبر.
وكذلك حديث أبي هريرة، وحديث واثلة؛ لأنَّ قول الأصحاب (قمنا قياماً)، حتى قوله: (دخل بيوت بعض أزواجه) لا دلالة فيه على أنَّهم قائمين ـ هكذا وردت في الأصل ـ له ﷺ، وكذا قوله في حديث واثلة: (فإذا رآه أخوه تزحزح له) لاحتمال أنْ يكون التزحزح، والتفَسُّح بمعنى واحد. والمنكر لا ينكر التفسّح».
(٢) واثلة بن الأسقع بن كعب، تُوفّيَ سنة ٨٣هـ/ ٧٠٢م بدمشق عن ١٠٥ سنين.
(٣) سنن البيهقي (كتاب شعب الإيمان).

ثـمّ إنَّ الأفعـال المختلفة، بعضها لا ينسب إلى غير الله، كإيجاد الكائنات، وصنـع المصنـوعـات، وبعضهـا لا يـنسب إلـى الله، كـأفعال القبائح والمُنَفِّرات، وبعضهـا تختلـف معانيهـا ومقـاصـدهـا، فتنسـب إلـى الخـالـق مرّة، والمخلوق أُخـرى. وهـذا الحُكـم متمشٍ على قول مَنْ لم يُثبتْ فاعلاً سوى الله، وعلى قول من أثبت.

والمعيـار أنّـه متـى قـام احتمال إرادة وجه صحيح بني عليه، لقوله ﷺ: «إدرأوا الحدود بالشبهات»، «ولا تقل في الناس إلاّ خيراً». وما دلَّ على النهي عن سوء الظنّ، فكيف بالشكّ.

وعن عائشة عن النبيّ ﷺ: إدرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم[1].

فالناس ـ إذاً ـ في صدور أمثال هذه الأمور عنهم على أنحاء:

بـين علمـاء عاملين، مقاصدهم صحيحة، فلا يتعمّدون بالأقوال والأفعال، إلاّ الوجوه السليمة من القيل والقال.

وبين أعوام جُهَّال بنوا على ما بنى عليه علماؤهم على الإجمال، وليس لهم قابليّة التفتيش على حقيقة الحال، فهم أيضاً معذورون عند ربِّ العزّة والجلال.

وبين من بنوا على طريق الضلال، وعليهم المؤاخذة بضروب النكال.

والتحقيق أنَّ تبدّل الأحكـام بتبـدّل المـوضـوعـات، ليس من باب التشريع والإبـداع، مثـلاً يستحـبّ للنسـاء التـزيـن لـرجالهنّ، فمتى كان لبس السواد زينة استُحبّ، فإذا انعكس وصار الميل إلى الأحمر والأصفر انعكس الخطاب. وألوان اللباس تختلف باختلاف النـاس، ففـي كلّ بلاد يستحبّ لون ونوع، فإنّه قد يكون فـي مكـان لبـاس شهرة، وفـي آخـر بعكسه، وفي موضع من لباس النساء، وفي موضع بعكسه.

وكذا كانت رغبة النّاس في طيب الكافور، فكرهه اليوم.

---

(١) المستدرك، الحاكم، ج١، ص ٣٨٤.

وكذلك إكرام الضيف بالمآكل، وكذا المراكب، فيختلف الحال باختلاف الأحوال.

وكذا طريق التواضع، وتعلية البناء، ولباس الزهد.

والزهد في المأكول يختلف باختلاف الأزمنة، والأمكنة، والأحوال، والمقاصد، وعلى ذلك مبنى كثير من اختلاف الأخبار.

وكذا يستحبّ التأهّب لجهاد الكفّار بأحسن السلاح، وكان أطيبها السيوف والرماح، وصار الأحسن في هذه الأيام التفك[1] المعروف بين الأنام.

وكذا الوصول إلى بعض الأرضين لا يستحبّ، حتى تجعل مقبرة للمسلمين.

فاختلاف الأزمنة والأمكنة والجهات، قد يبعث على اختلاف الأحكام، لاختلاف الموضوعات، وربّما بني على ذلك اختلاف كثير من الأخبار، وطريقة المسلمين على اختلاف الأعصار.

وفّقنا الله وإيّاكم لسلوك الجادة المستقيمة، والأخذ بالطريقة السليمة، وردّني الله إليك إنْ كنتَ أنتَ على الحقّ، وردَّكَ إليَّ إنْ كان الحقُّ معي، ومع أكثر الخلق.

(١) وفي نسخة (البُندق)، ويقصد بها البنادق.

الفصل الثاني

في بيان اختلاف ظواهر الآيات والروايات

وإنّ لكلٍّ من الحقّ والباطل مأخذاً، كما روي أنَّ لكلّ حقّ حقيقة، ولكلّ صواب نوراً، فمن أراد الحقّ اهتُدي إليه، ومَنْ أراد الباطل كان له ميدان في المجادلة عليه. فمن خرج عن جادة الإنصاف، وسلك طريق الغيّ والاعتساف، ولم يرجع إلى سيرة الصحابة والتابعين، أمكنه أن يستند إلى ظاهر القرآن المبين، في ما يخرج عن شريعة سيّد المرسلين.

فإنّ الوعيديّة المنكرين للعفو، الموجبين للمؤاخذة على المعاصي، يمكنهم الاستدلال بآية سورة الزلزال ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ و٨]، والوعدية القائلين برفع المؤاخذة بالكلّية، وإنّ الله لا يعاقب على معصية، لهم الاستناد إلى قوله تعالى: ﴿يَا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ [الزمر: ٥٣]، ووعده لا خلف فيه.

والمثبتون للرؤية في الآخرة يستندون إلى قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ و٢٣]، والنافون إلى قوله تعالى: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

والقائلون بأنّ الله على العرش بآية ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، والنافون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] و ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] و﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

والقائلون بالتجسيم على الحقيقة يستندون إلى مثل قوله: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، والنافون إلى قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ونحوها.

والقائلون بجواز المعصية على الأنبياء يستندون إلى مثل قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، والنافون بمثل قوله: ﴿لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

والقائلون باستناد جميع الأفعال إلى الله، استندوا إلى قوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] وقوله: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [النساء: ٧٨].

والآخرون إلى قوله: ﴿ما أَصَابكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

والقائلون بأنّ الكفّار مخاطبون بالفروع بعموم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، والنافون لذلك بخطاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤]، إلى غير ذلك.

وكذا في الفروع الفقهيّة، فإنَّ كلاًّ من الفقهاء له مأخذ من الكتاب والسنّة، مغاير لمأخذ صاحبه، كما لا يخفى على المتتبّع، فلمن أراد أن يُبيحَ جميع الأشياء قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٩]، ومن قصر التحريم على أربعة استند إلى ما دلّ على تحليل جميع الأشياء ما عدا الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أُهِلَّ به لغير الله، من جميع ما خلق الله.

والحاصل أنَّ كُلَّ مَنْ أراد العناد والعصبيّة، فله مَدْرَك يتشبّث به من آية قرآنيّة، أو سُنَّة مُحَمَّدية، ويكون صاحب مذهب ورأي، يباحث الفضلاء، ويُناظر أساطين العلماء، ما لم يكن له حاجب من تقوى الله.

ولقد أجاد بعض القدماء، من فحول العلماء حيث يقول: إنَّ المسائل الشرعيّة عندي بمنزلة الشمع اللّين، أُصوّرُهُ كيف شئتُ لولا تقوى الله.

ونُقلَ أنَّ بعضَ الفضلاء أخذ قطعةً من قرطاس في محفل من الناس، فأورد عليهم براهين على أنّها قطعة ذهب، حتى أقرّوا بذلك.

ولكن مَنْ أراد رضا الجبّار، ورجا الفوز بالجنّة، وخاف عذاب النار، ينظر إلى المعادلة في الدلالات، ثمّ ينظر المرجحات الخارجيّات، وأولاها التأمّل في

طريقة الصحابة وسيرتهم، فإنّها أعظم شاهد على ما حَكَم به الجبّار، وجرت عليه سُنَّةُ النبيِّ المختار ﷺ؛ فإنَّ لكلّ ملّة طريقةً يرجعون إليها، ويُعوِّلون عند وقوع الاشتباه عليها.

وقد يحصل العلم بما عليه الأمراء، من النظر إلى عمل أتباعهم، وأشياعهم، ورعاياهم، وخدمهم، وحشمهم، لأنَّ الأثر يدلّ على مؤثره، والمنتهى يدلّ على مصدره.

وبُعدُ العهد بيننا وبين زمان الصدور، ربَّما أخفى علينا كثيراً من الأمور، فإذا حصل الإجماع والاتّفاق، ارتفع النزاع والشقاق، وكذلك إذا اشتهر أمر بين السلف وظهر، فلا وجه للانصراف عنه إلى ما شذَّ وندر.

فقد علم أنَّ الميزان الذي لا عيب فيه، ولا نقص يعتريه، هو الرجوع إلى كلام الصحابة، والتابعين، وتابعي التابعين؛ لأنّه موضح وكاشف لحكم سيّد المرسلين.

ولمَّا اختلفت الأخبار في بعض ما أوردناه وشرحناه، لزم الرجوع إليهم، والاعتماد في تصحيح الأخبار ـ بعد الله ـ عليهم.

على أنَّ الأخبار الدالّة على جواز ما منعه المانعون أكثر مورداً، وأوفر عدداً، وأقرب إلى ظاهر الكتاب والسنّة وكلام الأصحاب.

وفّقنا الله وإيّاكم لإدراك حقائق الأمور، والتوفيق للسعادة يوم النشور، وجعلنا من المتمسّكين بالعروة الوثقى، والمتشوّقين إلى دار الآخرة التي هي خير وأبقى، والله وليّ التوفيق، وبيده أزمة التحقيق.

الفصل الثالث

في بيان الميزان التي يُرجع إليها إذا تشابهت الأمور

وهي ما عليه الصحابة والتابعون، وما أجمع عليه المسلمون. قال الله تعالى: ﴿... وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ [النساء: ١١٥]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وعن ابن عمر، أنّه قال: لا تجتمع أمّتي ـ أو قال: «أُمَّة مُحمَّد» ـ على ضلال. ويد الله على الجماعة، ومن شذَّ شذَّ في النار، رواه الترمذي[١].

وعن ابن عمر، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: اتبعوا السواد الأعظم، فإنّه من شذَّ شذّ في النار[٢].

وعن عمر، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: مَنْ سرَّهُ بُحبوحة الجنّة فليلزم الجماعة، فإنّ الشيطان مع الفرد، وهو من الاثنين أبعد[٣].

وعن أسامة بن شريك[٤]، عن النبيّ ﷺ: أيّما رجل يفرق بين أمّتي فاضربوا عنقه، رواه النسائي[٥].

وعن النبيّ ﷺ: إنّ الله أجاركم من ثلاث خلال، وعدَّ منها: أن تجتمعوا على الضلال[٦].

وعن النبيّ ﷺ: ما اجتمعت أمّتي على الخطأ[٧].

---

(١) سنن الترمذي (كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة).
(٢) مسند أحمد بن حنبل، ج٤، ص ٣٨٣.
(٣) سنن الترمذي، حديث ٢١٦٥.
(٤) أسامة بن شريك الثعلبي الذبياني، كان من الصحابة، سكن الكوفة.
(٥) سنن النسائي (كتاب تحريم الدم)، حديث ٣٩٥٧؛ صحيح مسلم، ج٣، ص ١٤٧٩.
(٦) سنن أبي داود، حديث ٤٢٥٣.
(٧) سنن ابن ماجه، حديث ٣٩٥٠.

وقال عليّ عليه السلام في بعض خطبه: عليكم بالسواد الأعظم، وإنّ الشاذّة للذئب[1].

وعن عمر، عن النبيّ صلى الله عليه وآله: أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم.

وعن رزين، عن عمر، عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: سألتُ ربّي عن اختلاف أصحابي، فأوحى إليّ: إنَّ أصحابك بمنزلة النجوم؛ بعضها أقوى من بعض، ولكُلٍّ نور، فمَنْ أخذ بما هم عليه من اختلافهم، فهو عندي على هدى[2].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: إنَّ مثل أهل بيتي كسفينة نوح، مَنْ ركبها نجا، ومن تخلَّف عنها هلك[3].

وعن أبي هريرة، عن النبيّ صلى الله عليه وآله: لو سلك الناس وادياً، وسلك الأنصار وادياً أو شعباً، لسلكتُ وادي الأنصار[4].

وعن زيد بن أرقم[5]، قال: قام النبيّ صلى الله عليه وآله خطيباً، فقال: أيُّها الناس إنّما أنا بشرٌ يوشك أن يأتيني رسولُ ربّي فأُجيب، وأنا تاركٌ فيكم الثقلين: كتاب الله فيه الهدى، وأهل بيتي، أُذكركم الله في أهل بيتي، رواه مسلم[6].

وعن جابر[7]، قال: رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وآله في حجّه يخطب، فسمعتُه يقول: يا أيُّها الناس إنّي تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، رواه الترمذي[8].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧.

(٢) كنز العُمّال، م ١، ص ١٨١، حديث ٩١٧.

(٣) مستدرك الحاكم، ج٣، ص ١٥٠.

(٤) صحيح مسلم، حديث ١٣٥.

(٥) زيد بن أرقم بن زيد بن قيس الأنصاري الخزرجي، أقام بالكوفة أيّام المختار، وتُوفّيَ فيها سنة ٦٦هـ، وقيل: سنة ٦٨هـ/ ٦٨٧م.

(٦) صحيح مسلم (فضائل الصحابة)، حديث ٤٤٢٥؛ مسند أحمد بن حنبل، (مسند الكوفيين)، حديث ٨٤٦٤؛ سنن الدارمي (فضائل القرآن)، حديث ٣١٨٢.

(٧) جابر بن عبدالله الأنصاري، توفّي سنة ٧٨هـ/ ٦٩٧م، عن ٩٤ عاماً.

(٨) سنن الترمذي (باب مناقب أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله)، حديث ٣٧٨٦.

وقريبٌ منه ما رواه زيد بن أرقم[1].

وعن حذيفة، عن النبيّ ﷺ: اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر، وعمر[2].

وعن جبير بن مطعم[3]، عن النبيّ ﷺ: إنَّ امرأته قالت للنبيّ ﷺ: إن لم أجدك فإلى مَنْ أرجع؟ فقال: إئت أبا بكر[4].

وعن ابن عمر، عن النبيّ ﷺ: وُضعَ الحقّ على لسان عمر يقول به[5].

وعن أبي داود، عن أبي ذرّ، قال: إنَّ الحقّ وضع على لسان عمر يقول به[6].

وعن عقبة بن عامر، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: لو كان بعدي نبيّ لكان عمر بن الخطّاب[7].

وعن سعد بن أبي وقّاص أنَّ النبيَّ ﷺ قال لعليّ عليه السلام: أنت منّي بمنزلة هارون من موسى[8].

وعن عبدالله بن عمرو[9]، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: ما أظلّت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء، من ذي لهجة أصدق من أبي ذرّ. رواه الترمذي[10].

وعن النبيِّ ﷺ أنّه قال: اللّهمّ أدرِ الحقَّ مع عليّ حيثما دار. رواه الترمذي[11].

---

(١) سنن الترمذي، حديث ٣٧٨٨.
(٢) المصدر نفسه، حديث ٣٦٦٢.
(٣) جبير بن مطعم بن عدي القرشي النوفلي، تُوفّي سنة ٥٩هـ/ ٦٢٠م.
(٤) سنن الترمذي، حديث ٣٦٧٦.
(٥) المصدر نفسه، حديث ٣٦٨٢.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) المصدر نفسه، حديث ٣٦٨٦.
(٨) المصدر نفسه، حديث ٣٧٣١.
(٩) هو ابن عمرو بن العاص السهمي القرشي، صحابي، أقام في مصر، وتُوفّي في الطائف سنة ٦٣هـ/ ٦٨٣م.
(١٠) سنن الترمذي، حديث ٣٨٠١؛ سنن ابن ماجه (المقدّمة)، حديث ١٥٢.
(١١) المصدر نفسه (كتاب المناقب)، حديث ٣٦٤٧.

وعن عمّار، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: إذا سلك الناس طريقاً، وسلك عليٌّ غيره، فاسلك طريق عليّ عليه السلام.

وعن ابن مسعود، عن النبيّ ﷺ قال: مَنْ كان مستنّاً فليستنّ بمن قد مات، أولئك أصحاب محمّد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمّة؛ أبرّها قلوباً، وأعمقها علماً. إلى أنْ قال: فاعرفوا لهم فضلهم، واتّبعوهم على إثرهم، وتمسّكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرتهم، فإنّهم كانوا على الهدى المستقيم، رواه رزين[1].

وعن عرباض بن سارية[2]، قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ، ووعظ ثمّ قال: إنّه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديّين، تمسّكوا بها، وعضُّوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإنّ كلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعةٍ ضلالة، رواه أحمد، وغيره[3].

وعن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: من خرج عن الطاعة، وفارق الجماعة مات ميتة جاهليّة[4].

وعن الحارث الأشعري[5]، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: مَنْ خرجَ عن الجماعة قدر شبر، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه.

وعن ابن عبّاس، عن النبيّ ﷺ: إنَّ مَنْ فارق الجماعة قدر شبر مات ميتة جاهليّة[6].

---

(١) صحيح مسلم، ج٤، ص ١٩٦٢.

(٢) عرباض بن سارية السلمي الحمصي، صحابي، أقام في الشام، وتُوفّي سنة ٧٥هـ/ ٦٩٤م.

(٣) مسند أحمد بن حنبل (مسند الشاميّين)، حديث ١٦٦٩٢، ١٦٦٩٤، ١٦٦٩٥؛ سنن الدارمي، (المقدّمة)، حديث ٩٥؛ الترمذي (كتاب العلم)، حديث ٢٦٠٠؛ ابن ماجه (المقدّمة)، حديث ٤٢، ٤٣.

(٤) وفي النسخة المطبوعة ورد الحديث كالآتي: «مَنْ مات، ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهليّة». صحيح مسلم (كتاب الامارة)، حديث ٣٤٤١.

(٥) هو الحارث بن الحارث الأشعري، صحابي، أقام في الشام.

(٦) مسند أحمد بن حنبل (مسند الشاميّين)، حديث ١٦٧١٨ (ضمن حديث طويل)، وحديث ١٧٣٤٤.

وعن عبدالله بن عمرو، عن النبيّ ﷺ: إنَّ أمّته تفترق ثلاثاً وسبعين فرقة، وليس فيها ناجٍ سوى واحدة، فسُئِلَ عنها، فقال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي[1].

إلى غير ذلك من الأخبار.

ومقتضى ذلك أنّه من اللازم الرجوع إلى سيرة الصحابة وطريقتهم، وأنّها الميزان إذا اشتكلت علينا الأمور، وتعارضت علينا الأدلّة، وسيتّضح أنّ جميع ما ينكر من هذه الأفعال الموردة صادرة عن الصحابة، وطريقتهم مستمرّة عليه، مع أنّ في السنّة ما يدلّ على جوازه.

وما ورد عنه ﷺ أنَّ الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً[2]، فلا ينافي ما ذكرناه؛ لأنّ فرقة الإسلام بين طوائف الكفر كنقطة في بحر.

وروى أبو سعيد الخُدري عن النبيِّ ﷺ: ما أنتم في الناس إلاّ كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود[3]. وعوده غريباً في أيّام الدجّال، ونحوه يكفي في صدق الخبر.

وروى عبدالله بن مسعود[4] عن النبيّ ﷺ أنّه قال: لا تقوم الساعة إلاّ على شرار الخلق، رواه مسلم[5].

وعن أبي سعيد الخدري[6] عن النبيّ أنّه قال: لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الدنيا: الله[7].

---

(١) سنن الترمذي (كتاب الأيمان)، حديث ٢٥٦٥.

(٢) صحيح مسلم، حديث ١٤٥.

(٣) صحيح البخاري (كتاب تفسير القرآن)، حديث ٤٤٦٤؛ صحيح مسلم (كتاب الأيمان)، حديث ٣٢٧؛ مسند أحمد بن حنبل (باقي مسند المكثرين)، حديث ١٠٨٩٢.

(٤) في صحيح مسلم ورد اسم عبدالله بن عمرو بن العاص.

(٥) صحيح مسلم (كتاب الامارة)، حديث ٣٥٥٠.

(٦) في المصادر «أنس بن مالك».

(٧) مسلم (كتاب الأيمان)، حديث ٢١١؛ الترمذي (كتاب الفتن)، حديث ٢١٣٣؛ مسند أحمد (باقي مسند المكثرين)، حديث ١١٦٣٢. وزاد في المصادر كلمة «الله» مرّة ثانية في نهاية الحديث.

وكلّ ما صدر في زمان الصحابة من الأعراب بمحضر منهم ولم ينكروه، فهو موافق لرضاهم، وإلاّ لأنكروه. ولهذا أوردنا في هذه الرسالة كثيراً ممّا صدر في زمانهم من غيرهم.

وعلى كلّ حال، فلا كلام في أنَّ الأدلّة فيها عام، وفيها خاص، وفيها ناسخ، وفيها منسوخ، وفيها مجمل، وفيها مبيّن، وفيها مطلق، وفيها مقيّد، ومنها قطعيّ الصدور ظنّي الدلالة، ومنها قطعيّ الدلالة ظنّي الصدور، ومنها ظنّيهما، ومنها قطعيهما. ومن جهة اختلاف السند: منها صحيح، وضعيف، وحسن، ومُوثَّق، وقويّ إلى غير ذلك.

فإذا تعارضت الأدلّة، فلا بُدَّ من النظر إلى المرجحات: من جهة السند، أو من جهة الدلالة، أو من جهة سبك العبارة، أو من جهة كثرة الرواية، أو من جهة شهرة الفتوى، أو من جهة موافقة الأصول ومخالفتها، أو من جهة موافقة العمومات ومخالفتها، أو من جهة موافقة الكتاب وعدمها، إلى غير ذلك.

فإذا فُقِدت المرجحات، وقامت الحَيْرة، فلا يبقى مدارٌ إلاّ على سيرة الأصحاب، وطريقتهم، والنظر إلى ما هم عليه صاغراً عن كابر، وما عليه الأوّل والآخر.

وما نحنُ عليه اليوم من طريقة القوم أكثر الروايات موصلة إليه، وطريقة الأصحاب والصحابة مستمرّة عليه، وقد ذكرتُ منها قليلاً من كثير ليُعْلَم حال السلف، ويرتفع الإنكار على خلفهم.

فيا أخي، فَوَحَقِّ من رفع السماء، وبسط الأرض على الماء، إنّي لمَّا أحببتُكَ لمكارم أخلاقك، وحسن سيرتك مع الناس، وإرفاقك، أخشى عليكَ من سراية القَدْح إلى المشايخ الكبار(١)، والعلماء الأبرار، الذين هم للشارع نواب، ولأبواب الشرع بواب(٢). عصمنا الله وإيّاكم، وكفانا شرَّ الجهل وكفاكم، والله الموفّق.

وأمّا المقاصد فثمانية:

---

(١) في المطبوع: من حمل راية القدح في المشايخ الكبار.

(٢) في نصّ مخطوطة «العبقات»: «لمدائن الشرع أبواب».

المقاصد

المقصد الأوّل : في تحقيق ضروب الكفر
المقصد الثاني : في تحقيق معنى العبادة
المقصد الثالث : في الذبح لغير الله
المقصد الرابع : في النذر لغير الله
المقصد الخامس: في القسم بغير الله
المقصد السادس: في الاستغاثة
المقصد السابع : في التوسّل
المقصد الثامن : في الشفاعة

المقصد الأول
في تحقيق ضروب الكفر

وأقسامه كثيرة:

أوّلها: كفر الإنكار بإنكار وجود الإله، أو إثبات أنَّ غير الله هو الله، أو بإنكار المعاد، أو نبوّة نبيّنا أشرف العباد.

ثانيها: كفر الشرك بإثبات شريكٍ للواحد القهّار، أو في النبوّة للنبيّ المختار.

ثالثها: كفر الشكّ، بالشكّ في إحدى الثلاثة التي هي أصول الإسلام في غير محلّ النظر، ولا عبرة بالأوهام[1].

رابعها: كفر الهتك لهتك حرمة الدين، بالبول على المصحف، أو في الكعبة، أو سبّ خاتم النبيّين ﷺ.

خامسها: كفرُ الجحود؛ بأنْ يجحد باللسان أُصول الإسلام، ويعتقدها بالجَنان، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

سادسها: كفر النفاق، بأن ينكر في الجنان، ويقرَّ باللسان، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

سابعها: كفر العناد، بأن يقرّ بلسانه، ويعتقد بجنانه، ولم يدخل نفسه في ربقة العبوديّة، بل يتجرّأ على الحضرة القدسيّة، كإبليس (لعنه الله).

ثامنها: كفر النعمة، بأن يستحقر نعمة الله، ويرى نفسه كأنّه ليس داخلاً تحت مِنّة[2] الله.

(١) في المطبوع زيادة عبارة: «التي هي كخيالات المنام».
(٢) في المطبوع: «نعمة».

تاسعها: كفر إنكار الضروري[1].

عاشرها: إسناد الخلق إلى غير الله على قصد الحقيقة.

وليست جميع المعاصي العظام مخرجة عن الإسلام، فإنَّ المعاصي لا تنفكّ على الدوام، حتى في مبدأ حدوث الإسلام، ولذلك وضعت الحدود والتعزيرات، وأُقيمت الأحكام على ممرّ الأوقات.

نعم قد يُطلقُ على كثيرٍ منها اسم «الكفر» تعظيماً للذنب، وتحذيراً منه، وتشبيهاً لمؤاخذته، لعظمها بمؤاخذة الكفر.

فهو ـ إذاً ـ في الشرع قسمان: كُفرٌ صغير، لا يُخرِجُ عن اسم الإسلام. وكبيرٌ مخرجٌ عن اسمه بلا كلام.

ولو بنينا على أنَّ كُلَّ ما أطلق عليه اسم الكفر يكون مكفراً، لم تنجُ إلاَّ شرذمةٌ قليلة من الورى. فإطلاق اسم الكفر قد يكون استعظاماً للذنب ـ كما مرَّ ـ، وقد يراد أنّه ربّما انجرَّ بالآخرة إلى ذلك. كما ورد في الحديث: إنَّ في قلب المؤمن نكتة بيضاء، فإذا عصى اللهَ اسودَّ منها جانب، وهكذا إلى أنْ يتمّ سوادُها، فذلك الذي طبع الله على قلبه[2].

وممّا يدلّ على أنّ لفظ «الكفر» يُطلقُ على سائر المعاصي كثيراً في كلام الشارع منها: ما رواه أنس، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: لا دين لمن لا عَهدَ له[3].

وعن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يقتل حين يقتل وهو مؤمن[4].

---

(١) في المطبوع: «الإنكار للضروري».

(٢) الموطّأ (باب الكلام)، باب (١٨).

(٣) مسند أحمد بن حنبل، ج٣، باب ١٣٥، ١٥٤، ٢١٠، ٢٥١.

(٤) صحيح البخاري (كتاب الأشربة)، حديث ٥٢٥٦؛ صحيح مسلم (كتاب الأيمان)، حديث ٨٦؛ النسائي (كتاب قطع السارق)، حديث ٤٧٨٧.

وعن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ: إنّ علامة النفاق الكذب، وسوء الخلق، والخيانة[1].

وعن عبدالله بن عمرو، عن النبيِّ ﷺ: إنَّ النفاق عبارة عن أربع: الخيانة، والكذب، والغدر، والفجور[2].

وعن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ: إنّ المراء في القرآن كفر[3].

وعن النبيّ ﷺ أنّه قال: لا يترك[4] حضور الجماعة إلاّ منافق[5].

وعن أبي ذر، عن النبيّ ﷺ: المسلم من سَلِمَ المسلمونُ من يده ولسانه[6].

وعن عبدالله بن مسعود، عن النبيّ ﷺ: إنَّ الرُقى والتمائم من الشرك[7].

وعن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: مَنْ قال: مطرنا بكوكب كذا، فهو كافر[8].

وعن زيد بن خالد[9]، عن النبيّ ﷺ أنّه مَنْ قال: مطرنا بنوء كذا، فهو كافر[10].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من أتى حائضاً أو امرأته في دبرها، فقد كفر بما أُنزلَ على مُحمَّد، رواه الدارقطني، وابن ماجة، والترمذي[11].

---

(١) صحيح مسلم، حديث ١٠٧.

(٢) المصدر نفسه، حديث ١٠٦.

(٣) سنن أبي داود (كتاب السُنَّة)، حديث ٤؛ مسند أحمد بن حنبل (الباب الثاني)، حديث ٢، ٢٥٨، ٢٨٦.

(٤) في المطبوع: «يُفَوِّت».

(٥) صحيح مسلم، ج١، ص ٤٥١.

(٦) البيهقي، ج١٠، ص ١٨٧.

(٧) المستدرك، للحاكم، ج٤، ص ٢١٧.

(٨) صحيح مسلم، ج١، ص ٨٤.

(٩) زيد بن خالد الجهني المدني، أبو عبد الرحمٰن، صحابي، أقام بالكوفة، وتوفّي في المدينة سنة ٦٨هـ/ ٦٨٧م.

(١٠) صحيح مسلم (باب بيان كفر مَنْ قال: مطرنا بالنوء).

(١١) سنن ابن ماجة، ج١، ص ٢٠٩، حديث ٦٣٩؛ سنن الترمذي، ج١، ص ٢٤٣.

وروى عمر بن لبيد، عن النبيّ ﷺ: إنَّ الرياء الشرك الأصغر[1].

وعن أبي سعيد، عن النبيّ ﷺ: إنَّ الرياء الشرك الخفي[2].

وعن عمر بن الخطّاب، عن النبيّ ﷺ: إنَّ يسير الرياء شرك.

وعن شداد بن أوس[3]، عن النبيّ ﷺ: من صلّى برياء[4]، فقد أشرَكَ، ومَنْ صام برياء، فقد أشرك، ومَنْ تصدَّقَ برياء، فقد أشرك.

وروي: إنَّ تارك الصلاة كافر[5]، إلى غير ذلك.

بل قلَّما يسلم شيء من المعاصي من إطلاق اسم الكفر، فلا تبقى ثمّة حدود ولا تعزيرات، ولزم الحكم بالارتداد، وكفر العباد، ولا ينجو من الكفر إلاَّ قليلٌ من الأحياء والأموات، ولنادت الخطباء بذلك على رؤوس الأشهاد، ولشاع ذلك في أقاصي البلاد، مع أنّ المعهود من سيرة النبيّ ﷺ والصحابة والتابعين وتابعي التابعين معاملة الناس على الاكتفاء بإظهار الشهادتين.

وعنه ﷺ: أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يقولوا الشهادتين.

وعن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ أُتي بمخنث قد خضب يديه ورجليه بالحِنّاء، فقال: ما بال هذا؟ قالوا: يتشبَّهُ بالنساء، فنفاه إلى البقيع، فقيل: يا رسول الله، ألا تقتله؟ فقال: نُهيتُ عن قتل المُصَلِّين.

وروى عبدالله بن مسعود، عن النبيّ ﷺ: إنَّ قتال المسلمين كفر[6].

وعن ابن عمر، عن النبيّ ﷺ: إنّ نسبة المسلم إلى الكفر كفر[7].

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، ج٥، ص ٤٢٨.
(٢) ابن ماجة، ج٢، ص ١٤٠٦، حديث ٤٢٠٤.
(٣) شدّاد بن أوس بن ثابت الخزرجي، تُوفّي سنة ٥٨هـ/ ٦٧٨م عن(٧٥) عاماً.
(٤) في المطبوع: «وهو يُرائي».
(٥) سنن ابن ماجة، ج١، ص ٣٤٢.
(٦) صحيح مسلم، ج١ (باب بيان قول النبيّ ﷺ: سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)، ص ٨١.
(٧) المصدر نفسه، ج١ (باب بيان حال إيمان مَنْ قال لأخيه المسلم: يا كافر)، ص ٧٩.

وعن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ: إذا قال الرجل: هلك الناس، **فهو** أهلكهم[1].

وعن ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أنْ لا إله إلاّ الله، وأنَّ مُحمَّداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإنْ فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم، وحسابهم على الله[2].

وعن أنس أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: مَنْ صلَّى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله[3].

إلى غير ذلك من الأخبار.

وليس غرضي أنّه لا طريق للكفر سوى ذلك، ولكن يستفاد منها أنّه بعد إظهار الشهادتين يبنى على الإسلام ما لم يعلم شيئاً ينافيه، ولا حاجة إلى التجسّس، بل نهى الله تعالى عنه.

وبيان الأمر على التحقيق: هو أنّه قد عُلمَ أنَّ لسان الشارع جارٍ على نحو لسان العرب؛ ففيه حقائق، ومجازات، واستعارات، وكنايات، وخطابات، تشتمل على المبالغات، كما أنَّ لساننا يشتمل على ذلك من غير إنكار، فإنَّ الذنب إذا صدر من شخص وأردنا استعظامه، صحَّ لنا أنْ نُسمِّيه كفراً، وأنْ نسمّي فاعله كافراً. ولا يزال ذلك يقع على مرور الأزمان من أيّام النبيّ ﷺ إلى هذا الآن، مع أنّه ليس في ذلك إنكار، بل قد يُعَدُّ من أفعال الأبرار، على أنَّ كُلَّ مَنْ صدر منه ذنبٌ ولو صغير، لم يفِ بجزاء نِعَم اللطيف الخبير.

فإطلاق الكفر لعلّه من باب الكفر ببعض النعم الذي هو كفر صغير.

على أنَّ أنظار الأنبياء والأولياء ليس إلى المعاصي، حتى يكون فيها صغيرٌ وكبير، بل إلى مَنْ عصاه الناس؛ وهو اللطيف الخبير.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، ج٢، ص ٤٦٥.
(٢) صحيح مسلم، ج١، ص ٥٣، حديث ٣٦.
(٣) النسائي (باب المناسك)، حديث ٢١١.

فإذا لاحظتَ أنَّ المعصية كانت في حقّ الله، تجدها ـ ولو صغرت ـ أكبر من الجبال الرواسي، حتى أنّه بلسان الورع والتقوى دون الفقه والفتوى، ربّما لا يفرق بيـن الصغـائـر والكبائر. بل ربّما نقل عن بعض الأولياء أنّه لا فرق بين المكروه والحرام، والمسنونات وفرائض الأحكام، قال: لأنَّ الكُلَّ مطلوب للملك العلّام.

وإذا بُنـيَ علـى هـذا استُحسـن هذا الإطلاق، وحسن إطلاق اسم المعاصي والمحرّمات على فعل المكروهـات، والفرائض والواجبات على فعل المستحبّات والمندوبات، وكبائر الخطيئات على صغائر التبعات، والكفر والكفّار على كلّ مَنْ عمل ما يوجب دخول النار.

ولولا ذلك للـزم كفـر أكثر مَنْ في الأرض، لأنّه قلَّما خلت معصية من هذا الغـرض، ولـو عملنـا بجميـع ظـواهـر الأخبـار، لاختلّت علينا أحكام ملَّة النبيّ المختار. وفّقنا الله وإيّاك، وهدانا الله إلى الحقّ وهداك[1].

---

(١) في المطبوع: «وفّقنا الله وإيّاكم، وهداك إلى الحقّ المُبين».

المقصد الثاني
في تحقيق معنى العبادة

لا ريب أنّه لا يراد بالعبادة التي لا تكون إلاّ لله، ومن أتى بها لغير الله فقد كفر، مطلق الخضوع والخشوع والانقياد، كما يظهر من كلام أهل اللغة، وإلاّ لزم كفر العبيد والأُجراء، وجميع الخدّام للأُمراء، بل كفر الأبناء في خضوعهم للآباء، وجميع مَنْ تواضع للإخوان، أو لأحد من أصحاب الإحسان.

وإنّما الباعث على الكفران، الانقياد لبعض العباد مع اعتقاد استحقاقهم ذلك بالاستقلال من دون توجّه الأمر من الكريم المتعال، وأنَّ لهم تدبيراً واختياراً.

ولفظ «العبد» و «العبادة» قد يُطلقُ على مطلق المطيع والطاعة، فقد ورد: إنَّ العاصي عبد الشيطان، وإنّه عبد الهوى. وإنّ الإنسان عبد الشهوات، وإنَّ مَنْ أصغى إلى ناطقٍ فقد عبده.

ثمّ مَنِ اتّبع قول قائلٍ لأنّه مُخْبِرٌ عن غيره، فهو عابد للمُخْبِر عنه، لا للمُخْبِر. ومَنْ خدم شخصاً بأمر آمر، فالمعبود هو الآمر، ومن تبرَّكَ بشيء لأمره، كان ذلك من عبادة الآمر. فالملائكةُ في سجودهم لآدم، ويعقوب في سجوده ليوسف، والناس في تقبيلهم للحجر الأسود والأركان، لم يعبدوا سوى مَنْ أمرهم بذلك.

ثمّ السجود والخضوع لعروض بعض الأسباب، لا يُنافي الإخلاص لربِّ الأرباب.

روى أبو داود والترمذي، عن عكرمة، قال: قيل لابن عبّاس: ماتت (فلانة) ـ بعض أزواج النبيّ ﷺ ـ، فخرَّ ساجداً، فقيل له: تسجد في هذه الساعة؟

فقال: قال رسول الله ﷺ: إذا رأيتم آيةً فاسجدوا، وأيّ آية أعظم من ذهاب أزواج النبيّ ﷺ[١].

فعلى هذا، لو سجَدَ مَنْ رأى ميتاً، أو قبراً، أو شيئاً عجيباً، ذاكراً لعظمة الله ـ كما يصنعُهُ بعضُ العارفين ـ لم يكن به بأس.

وعبادة الأصنام وبعض الصالحين، مع نهي الأنبياء والمرسلين الذين دلَّتْ على صدقهم المعاجز[٢] والبراهين، محض عناد وخلاف على ربّ العباد، ولو أنّهم أخذوا عن قول الله ورسله، لم يكن عليهم إيراد.

كما أنّ السيّد لو قال لعبده: تبرّك بثياب فلان، ونعله، وترابه، فَفَعلَ، كان عابداً للمولى. وأمّا لو نهاه المولى، أو أخذ بمجرّد الظنّ الذي لا يُغني عن الحقّ شيئاً، أو الخَرْص[٣]، لكان عاصياً مخالفاً.

ألا ترى أنَّ مَنْ جعل المرضعات أُمّهات، ليس كمن جعل المصاهرات، ومَنْ حرَّم الوصيلة، والسائبة، والحام[٤]، ليس كمن حرَّم الجلالة[٥] من الأنعام.

وليس تحريم الأشهر الحرام كتحريم غيرها من باقي أشهر العام، وليس

---

(١) سنن أبي داود، ج١، ص ٣١١، حديث ١١٩٧؛ سنن الترمذي، ج٥، ص ٦٦٥، حديث ٣٨٩١.

(٢) في المطبوع: «المعجزات».

(٣) الخَرْص: الحدس، والكذب والافتراء.

(٤) من معتقدات العرب أنَّ الوصيلة من الغنم (وهي الشاة) إذا ولدت أُنثى فهي لهم، وإذا ولدت ذكراً أوقفوه لآلهتهم، فإنْ ولدت ذكراً وأنثى قالوا: وصلتْ أخاها، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم.
أمَّا السائبة، فقد كان الرجل إذا نذر القدوم من سفر، أو الشفاء من علّة، فإنَّ ناقته ستكون سائبة (أي لا تستخدم للانتفاع بها، ولا تخلّى عن ماء، أو تمنع عن مرعى).
والحام هو الذكر من الإبل إذا أنتجت من صُلب الفحل عشرة أبطن قال العرب: قد حمى ظهره، فلا يُحمل عليه.
وقد حرَّم القرآن هذه المعتقدات، كما ورد في سورة المائدة، آية (١٠٣) قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾.
والبحيرة هي الشاة التي تُبحرُ أُذنُها (أي تُشقّ) علامة على تحريم الانتفاع بها.

(٥) الحيوان الجلاّل: هو الذي يأكل العذرة، وقد ورد النهيُ عن أكل لحمه، وشرب لبنه.

صيام آخر شهر رمضان كصيام أوّل شوّال؛ كلّ ذلك للفرق بين الأمر والاختراع، والقول بمجرّد الابتداع[1].

ثمّ العبادة تختلف باختلاف النيّات، فمَنْ قصد حقيقة العبادة اختراعاً وابتداعاً، ومخالفة لأمر الله سبحانه كان كافراً، سواءً قصد القرب إلى الله زلفى أو لا، بل هذا في الحقيقة عين العناد والشقاق بعد نهي الأنبياء والرسل.

كما قال قوم شعيب له: ﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: ٨٧].

وقال الصدِّيق: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ [يوسف: ٣٩ و٤٠].

وحكى الله عن قوم نُوح وعادٍ وثمُود أنّهم ردّوا أيديهم في أفواههم، وقالوا: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩] إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على ردِّهم على الأنبياء، وبنائهم على الاختراع والابتداع.

وفي الاحتجاج: في حديث طويل عن النبيّ ﷺ أنّه أقبل في مشركي العرب، فقال لهم: وأنتم فلم عبدتم الأصنام من دون الله؟ فقالوا: نتقرّب بها إلى الله زلفى، فقال: أو هي سامعة مطيعة عابدة لربّها حتى تتقرّبوا بها إلى الله؟ قالوا: لا، قال: أفأنتم نحتّموها بأيديكم؟ فقالوا: نعم، قال: فلئن تعبدكم هي أحرى من أن تعبدوها، إذا لم يكن أمركم بتعظيمها مَنْ هو العالم بمصالحكم، وعواقبكم، والحكيم في ما يكلّفكم[2].

فإذا كان الله قد نهى على لسان أنبيائه عن عبادة الأصنام والصالحين من الأنام، على نحو عبادة الصلاة والصيام، فَفعلُهم بعد ذلك ردٌّ لكلام العليم العلاّم.

---

(١) في المطبوع: «للفرق بين الأمر والاتّباع، والقول بمجرّد الاختراع والابتداع».
(٢) أوردها أحمد بن عليّ الطبرسي (من علماء القرن الخامس الهجري) في كتاب الاحتجاج، ج١، ص ٢٦، بيروت، ١٩٨١.

وكشف الحقيقة: إنَّ العبادة إنْ أُريد بها مجرّد الامتثال والطاعة، كانت الزوجة، والأمة، والعبد، والخادم، والأجير، ونحوهم، عابدين لغير الله.

وإن أُريد الامتثال والانقياد للعظيم في ذاته، المستوجب للطاعة، لا بواسطة أمر غيره، فأين ذلك من أفعال المسلمين؟

فأُقسمُ عليك بمَنْ سلَّطَكَ على طائفة من عباده، ومكَّنَكَ من كثير من بلاده، أنْ تخلّي نفسك من حبّ الانفراد، الباعث على الامتياز بين العباد، وتحذر من قولهم: «لكُلِّ جديد لذَّة»، و «خَالِفْ تُعْرَفْ»، كما أنّي أُحذِّر نفسي، وأصحابي مِنْ حُبِّ اتّباع الآباء والأجداد، وإرادة الدخول في الجماعة، وكراهة الانفراد.

وأمَّا ما صدر من أهل الإسلام، فإنّما هو عن أمر زعموه، فإنْ كان حقّاً أُثيبوا، أو كان خطأً فكذلك.

فأين حال المسلمين من حال مَنْ جعل الآلهة ثلاثة، أو اثنين، واتّخذَ الملائكة أرباباً، واتّخذ بعض المخلوقين أنداداً وشركاء، يُعْبَدُونَ من دون الله أو مع الله، إمَّا لأهليّتهم، أو لترتّب التقرّب إلى الله زلفى من دون أمر الله لهم بذلك؟ قال تعالى: ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٤٠].

ورُوِيَ أنَّ قريشاً كانوا يعبدون الأصنام، ويقولون: ليقرِّبونا إلى الله، ولا طاقة لنا على عبادة الله. وسيجيء في بعض المقامات الآتية ما يكشف عن حقيقة ذلك.

وإن أردتَ تمام الكلام في هذا المقام، فانظر بعين البصيرة إلى ما نحاول في هذا المقام تحريره.

إعلم أنَّ الألفاظ اللغويّة والعُرفيّة العامَّة، قد تبقى على حالها من المعاني القديمة، فتلك لا تحتاج إلى بيان، سواءً وردت في السُنَّة أو القرآن.

وأمَّا إذا نُقلتْ عن المعاني الأوّلية إلى غيرها، أو اسْتُعمِلتْ في المعاني الثانويّة على وجه المجازيّة، فهي من المجمل المحتاج إلى البيان، كلفظ الصلاة والصيام والحجّ، فإنّه لو لم يبينها الشرع لبقيت على إجمالها؛ حيث لا يراد

منها مطلق الدعاء والإمساك والقصد، بل معنى جديد، تتوقّف معرفتُهُ على بيان وتحديد.

ومن هذا القبيل ما نحن فيه من لفظ العبادة والدعاء ونحوهما، فإنّه لا يراد بهما في لحوق الشرك بهما المعنى القديم، وإلاّ للزم كفر الناس من يوم آدم إلى يومنا هذا؛ لأنَّ العبادة بمعنى الطاعة والدعاء بمعنى النداء والاستغاثة للمخلوق لا يخلو منها أحد.

ومن أطوع من العبد لسيّده، والزوجة لزوجها، والرعيّة لملوكها، ولا زالوا ينادونهم، ويطلبون إعانتهم ومساعدتهم، بل الرؤساء لم يزالوا يستغيثون بجنودهم وأتباعهم ويندبونهم.

فعُلِمَ أنّه لا يُرادُ بهذه المذكورات، المعاني السابقات، وتَعيَّن إرادة المعاني الجديدة، فصارت بذلك من المجملات والمتشابهات، فلا يجوز الحكم بمقتضاها، إلاّ في الموضع المعلوم دون المشكوك والموهوم.

وإنّما هو خطاب الوضيع لمن شأنه رفيع، على أن يكون مالك التصرّف، أو خدمته الخاصّة لرفعته الذاتيّة، وشرافته الأصليّة، من دون أمر آمر، ولا تكليف مكلِّف، بل من مجرّد الابتداع والاختراع.

وأمّا ما كان عن أمر آمر، فالمعبود هو الآمر، ولا فرق بين أن يقول: ضع جبهتك في الصلاة على الأرض، أو على بدن إنسان، أو غير ذلك، وبين أن يقول: ضعها على قبر كذا، أو حجر كذا.

وإنّما كُفِّرَ عبدةُ الأصنام، لأنّهم فعلوا ما يُعدُّ عبادةً من دون أمر الله، ولأنّهم خالفوا أنبياء الله في نهيهم عن تلك الأشياء، فكانت قصد تقرّبهم في ما نهى الله عنه. إمّا بناء على أنّ الأصنام للجبّار قاهرون، فيقرّبونهم قهراً، أو كان استهزاءً بالرسل، وتكذيباً لهم، وكلٌّ من الكُفْرَين أعظم من الآخر، فإنَّ المتقرِّبين محصَّل كلامهم أنّا نخالف أمر الله وأمر رسوله، ونعبد ما نُهينا عن عبادته ليقرّبنا إلى الله.

المقصد الثالث
في الذبح لغير الله

لا يشكّ أحدٌ من المسلمين في أنّ من ذبح لغير الله ذبح العبادة (كما يذبح أهل الأصنام لأصنامهم حتى يذكروا على الذبائح أسماءهم، ويهلّون بها لغير الله) خارجٌ عن ربقة المسلمين، سواءً اعتقدوا آلهيّتهم، أو قصدوا أن يقرّبوهم زلفى؛ لأنَّ ذلك من عبادة غير الله تعالى.

وأمّا من ذبح عن الأنبياء أو الأوصياء، أو المؤمنين ليصل الثواب إليهم، كما يُقرأ القرآن ويُهدى إليهم، ونصلّي لهم، وندعو لهم، ونفعل جميع الخيرات عنهم، ففي ذلك أجرٌ عظيم، وليس قصد أحد من الذابحين للأنبياء أو لغيرهم سوى ذلك.

أمّا العارفون منهم، فلا كلام. وأمّا الجُهّال، فهم على نحو عرفائهم.

وقد رُويَ عن النبيّ ﷺ أنّه ذبح بيده، وقال: اللّهُمّ هذا عنّي، وعن مَنْ لم يُضحِّ من أمّتي. رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي[1]. وفي سنن أبي داود أنَّ عليّاً كان يُضَحّي عن النبيّ ﷺ بكبش، وكان يقول: أوصاني أن أُضحّي عنه دائماً[2].

وعن عليّ عليه السلام: إنّ النبيّ ﷺ أوصاني أن أُضحّي عنه[3].

وعن بُريدة، عن النبيّ ﷺ أنّ امرأةً سألتْهُ: هل تصوم عن أُمّها بعد موتها؟ وهل تحجّ عنها؟ قال: نعم[4].

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، ج٣، ص ٣٥٦؛ سنن أبي داود، ج٣، ص ٩٩، حديث ٢٨١٠؛ سنن الترمذي، ج٤، ص ٧٧، حديث ١٥٠٥.
(٢) سنن أبي داود، ج٣، ص ٩٤، حديث ٢٧٩٠.
(٣) مسند أحمد بن حنبل، ج١، ص ١٥٠.
(٤) صحيح مسلم، ج٢، ص ٨٠٥، حديث ١١٤٩.

وعن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ أنّه قال: تقضي البنتُ نَذْرَ أُمِّها[1].

ورُوِيَ أنَّ العاص بن وائل أوصى بالعتق فسأل ابنه عمرو النبيَّ ﷺ عن العتق له، فأمره به.

ورُوِيَ عن عائشة أنَّ النبيّ ﷺ قال عند الذبح: اللّهُمّ تقبّل من مُحمَّد، وآله، وأُمّته.

والحاصل: لا كلام ولا بحث في أنَّ أفعال الخير تُهدى إلى الموتى، ومَنْ أولى بالهدايا من أنبياء الله وأوصيائه، فليس الذبح لهم وباسمهم، حتى يكون الإهلال لذكرهم، وإنّما ذلك عملٌ يُهدى إليهم ثوابُهُ كسائر الأعمال، حتى أنّهُ لو ذكر اسمهم على الذبيحة، كان ذلك عند المسلمين منكراً، فهو ذبح عنهم لا لهم.

وإنّي ـ والذي نفسي بيده ـ منذ عرفتُ نفسي إلى يومي هذا، ما رأيتُ، ولا سمعتُ أحداً من المسلمين ذبحَ أو نحرَ، ذاكراً لاسم نبيّ، أو وصيّ، أو عبد صالح، وإنّما يقصدون إهداء الثواب إليهم، فإن كان في أطرافكم قبل تسلّطكم مثل ذلك، (فصاحب الدار أدرى بالذي فيها).

ولا شكّ أنَّ نجداً وأعرابها قبل أن تُظْهِرُوا فيها أمرَ الصلاة والصيام، وتأمروهم بالملازمة لعبادة الملك العلّام، كانوا كالأنعام أو أضلَّ سبيلاً، وقد رفع الله عنهم الشقاق، وحصل بينهم الاتّفاق، وفرّقوا بين الحلال والحرام، وتوجّهوا لأوامر الملك العلّام.

ويؤيّدُ ذلك ما رواه ابن عمرو عن النبيّ ﷺ أنّه قال: اللّهمّ باركْ لنا في شآمنا، اللّهمّ بارك لنا في يمننا، قالوا: يا رسول الله، وفي نجدنا، فقال: اللّهُمّ بارك لنا في شامنا، وفي يمننا، ثمّ قالوا: يا رسول الله، وفي نجدنا، فأظنّه قال في الثالثة: هناك موضوع الزلازل والفتن، وبها مطلع قرن الشيطان، رواه البخاري[2]. وإلحاق غير أهل نجد بهم من قياس الشاهد على الغائب.

---

(١) سنن ابن ماجة، ج٢، ص ٩٠٤.

(٢) صحيح البخاري، ج٩ (باب الفتن)، حديث ١٦؛ سنن الترمذي (كتاب المناقب)، حديث ٧٣.

وكيف يخفى على فحول العلماء، وأساطين الفقهاء الذين أقاموا الجمعات والجماعات، وأقاموا الأحكام، وأوضحوا الشبهات، وأمعنوا نظرهم في فهم الآيات والروايات، أنَّ الذبح لا يكون إلاَّ لجبّار السماوات؟ مع أنَّ ذلك تلقَّاه عن الأكابر الأصاغر، وعن الأوائل الأواخر. فلم يزل أهلُ الإسلام من قديم الأيّام يذبحون للأنبياء والأوصياء والعباد الصالحين، ويهدون الثواب إليهم طلباً لمرضاة ربّ العالمين.

واختيارهم للأماكن الشريفة، كحرم النبيّ ﷺ ونحوه، لما ورد من أنَّ الأعمال يتضاعف أجرُها لشرف الزمان والمكان، كشرف الكوفة.

روى الأصبغ بن نباتة[1] عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّ الخضر قال له: إنَّكَ في مدينة لا يريدها جبّار بسوء إلاَّ قصمه الله.

ورُويَ أنَّ البركة فيها على اثني عشر ميلاً من سائر جوانبها.

وإنّ المسلمين كافّة يتبرّؤون ممّن يدعو غير الله، أو يستغيث بغير الله، أو يذبح وينحر لغير الله، أو يحلف بغير الله، على النحو الذي وقع في نظركم أنّهم يقصدونه ويتعمّدونه، ومعاذ الله أن يكونوا كذلك.

والذي فلقَ الحبَّة، وبرَأ النَسَمَة، لو علمتُ منهم ذلك، لكفّرتُهم، وهاجرتُ عنهم، معتقداً وجوب ذلك عليَّ، لكنْ وحقِّ مَنِ اشتقَّ مِنْ ظُلْمةِ العدم نُورَ الوجود، ما وجدتُ ذلك منهم، ولا صدرَ ذلك عنهم، ولا بأس عليكم، فرُبَّما افترى الحاضرون لديكم تقرُّباً بذلك إليكم، فاقتصرْ على حدودِكَ التي أنتَ فيها، فإنَّ النفس إذا قنعتْ، قليلٌ من الدنيا يكفيها.

وفي المشكاة: عن رسول الله ﷺ: إنّي لستُ أخشى عليكم أنْ تُشركوا بعدي، ولكنْ أخشى عليكم الدنيا أنْ تنافسوا فيها فتهلكوا، كما هلك مَنْ كان قبلكم[2].

---

(١) الأصبغ بن نباتة المجاشعي التميمي الكوفي، تُوفّي أوائل القرن الثاني الهجري.

(٢) صحيح البخاري (كتاب المغازي)، حديث ١٧، و(كتاب الجهاد)، حديث ٣٨؛ صحيح مسلم (كتاب الزكاة)، حديث ١٢١؛ سنن ابن ماجة (كتاب الفتن)، حديث ١٨؛ مسند أحمد بن حنبل، الباب الخامس، حديث ٤٨.

وبعد التأمّل الصادق لا نجد ـ عند مَنْ شاهدناه ممّن يدَّعي الإسلام وينتسب إلـى ملّـة سيّـد الأنـام ـ ذبـحـاً، ولا نحراً، ولا نذراً، ولا عتقاً، ولا تصدّقاً، ولا وقفاً، ولا شيئـاً من العبـادات ممّا يتعلّق بالماليّات أو البدنيّات، ولا توسّلاً، ولا تقـرُّبـاً، إلاّ إلـى جبّار الأرضين والسماوات، ولو أعلمُ ذلك منهم لما قبلتُ كلمة الإسلام الصادرة عنهم.

فمهلاً يا أخي، مهلاً مهلاً، فإنّ القوم ليس حالُهم كما وصلَ إليكم، ووردَ عليكم، فإنّي بهم خبير، وبأحوالهم بصير، وليس غرضي تزكيتهم، ولكنْ ـ والله ـ هذا الذي علمتُهُ من سيرتهم، والله الموفّق.

المقصد الرابع
في النذر لغير الله

هذا المقام من مزال الأقدام، وإنّما كثرت فيه الأقاويل، لخفاء الموضوع إلاّ على القليل، فإنّه لا ينبغي الشكّ في أنَّ النذر لغير الله على أنّه أهلٌ لأنْ يُنذرَ له، لأنّه مالك الأشياء وبيده زمامها، من الكفر والشرك؛ لأنَّ النذر من أعظم العبادات، وإن أُريد أنّه ينعقد بذلك وإن لم يُذْكَرِ اسمُ الله عليه فهي مسألةٌ فقهيّةٌ فرعيّةٌ. واعتقاد ذلك لا عن دليل تشريع حرام، لا يُخْرِجُ عن ملّة الإسلام.

وليس المعروف في هذه البلدان النذر لغير الله إلاّ على معنى أنّه صدقة يُهْدَى ثوابها إلى أولياء الله، فمعنى النذر للنبيّ ﷺ ـ مثلاً ـ أنّه صدقةٌ منذورة يُهدى ثوابها له، وهكذا النذر لسائر الأولياء. فلا يزيد هذا على من نذر لأبيه وأُمّه، أو حلف، أو عاهد أن يتصدّق عنهم، كما رُوي عنه ﷺ أنّه قال للبنت التي نذرت لأُمِّها عملاً: فِ بنَذْرِكِ[1].

فإن كان النذر للآباء والأمّهات كفراً، كان هذا كفراً، وإلاّ فلا. فمَنْ حاول بالنذر حصول الثواب والتقرّب إلى الله زُلْفى من المنذور له، على أنْ يكون الفعل له لا على أن يكون الثواب له، فهو ضالٌّ مضلٌّ. وأمّا من قصد خلاف ذلك، فلا بأس عليه.

واختيار بعض الأمكنة للنذور طلباً لشرف المكان، حتى يتضاعف ثواب العبادة، كما يختار بعض الأزمنة لبعض العبادات، لا بأس به، بل لا بأس بتخصيص بعض الأمكنة المباركة، وهو مستفادٌ من الأخبار، كما لا يخفى على من حام حول الديار.

---

(١) صحيح البخاري (كتاب الاعتكاف)، حديث ٥، ١٥، ١٦؛ صحيح مسلم (كتاب الأيمان)، حديث ٢٧؛ سنن أبي داود (كتاب الأيمان)، حديث ٢٢؛ سنن الترمذي (كتاب النذور)، حديث ١٢؛ ابن ماجة (كتاب الطلاق)، حديث ٣٦.

روى ثـابت بن الضحّاك[1]، عن النبيّ ﷺ أنّ رجلاً سأله أنّه نذر أن يذبح ببـوّانـة، قـال: هـل كـان فيهـا وثـن يعبد؟ قال: لا، قال: فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟ فقال: لا، فقال: فِ بنذرك[2].

ثمّ إنّـي أعلم ـ والله ـ أنّك لو وضعتَ منادياً ينادي في بلاد الإسلام، ويُعلن بصوته في كلّ مقام، ليجد شخصاً يُعَدُّ من نوع الإنسان يقصد بنذره غير وجه الملـك الـديّـان، لـرجـع إليـك صفـر اليـديـن، ولم يجد ناذراً للنبيّ ﷺ، أو الصحابة، أو الحسنين عليهما السلام.

وكيف يقصدونهم بنذورهم وعباداتهم مع علمهم بمماتهم؟ وإذا دخلوا إلى مواضع قبورهم قرأوا لهم القرآن، وأهدوا إليهم من صلاتهم بعض ما كان، ودعوا لهـم بـرفـعـة الـدرجـات، وزيادة الأجر عند ربّ السماوات، فإن كانوا معبودين باعتقادهم، فكيف يهدون إليهم عبادة العبيد؟!

ليتَ شعري كم من الفرق بين مَنْ يَعْبدُ ليُقرَّب إلى الله زلفى، وبين من يُعْبَدُ الله عنه ليُقرِّبه الله زلفى.

واللهِ مـا نُـذِرتْ نـذور، ولا جُـزِرَتْ جـزور، ممّـن يتّصف بالإيمان، ويقرُّ بالشهـادتيـن بـالقلب واللسـان، إلاّ لـوجـه الملـك الديّـان، وطلباً لرضى الواحد المنّان.

فمـن كـانت هذه مقاصدهم، وعلى ذلك بنوا قواعدهم، كيف ينسبون إلى عبادة غير الله، ويُشَبِّهُون بعبدة الأصنام المُثْبِتين شريكاً للملك العلاّم؟!

ليـتَ شعـري لـو أنَّ الرسل جاءت بالسجود للأحجار، أو لبعض الكواكب والأشجـار، لـم يكـن ذلك السجود إلاّ عبادة للملك الجبّار؛ لأنَّ الطاعة للآمر لا لمن يكن له في ذلك الاظهار.

---

(1) ثابت بن الضحّاك بن خليفة بن ثعلبة بن عدي الأنصاري، مات سنة ٤٥هـ/ ٦٦٥م.

(2) سنن أبي داود (كتاب الأيمان)، حديث ٢٢؛ سنن ابن ماجة (باب الكفّارات)، حديث ١٨؛ مسند أحمد بن حنبل، الباب الأوّل، حديث ٩٠.

ولـو أنَّ النـاظـر لصـور الكـواكـب وهيئة الأفلاك، تدبَّرَها تفكُّراً في عظمة الخالق، وسجد، كان عابداً لمدبّرها.

ثمّ ليس المراد بالعبادة مجرّد الخضوع والتذلّل، كما هو المعنى القديم، بل يُراد معنى جديد، وهـو التـذلُّـل الخـاص، على شرط أنْ يكون في كمال الصفاء والإخلاص.

وعلى فرض أن يصدر من بعض أعوام المسلمين، لعدم قربهم من محال العلماء العاملين؛ فلا ينبغي معاملة الجميع بهذه المعاملات، والبناء على نسبتهم إلى الشرك من دون قيام البيّنات.

فقف ـ يا أخي ـ في مواضع الشبهات، لئلاَّ تقع في الهلكات. وإنّي ـ والله ـ فرحٌ مسرورٌ بدفعك عن أبناء السبيل كلّ محذور، وأمرك بالصلاة والصيام، وإنفاذ مـا شـرع النبـيّ ﷺ مـن الأحكام، إلاَّ أنّي أخشى عليك أنْ تأخذ العالم بذنب الجاهل، والمنصف بـورطـة المعاند المجادل. وفّقنا الله لطريق الصواب، والفوز برضاه في يوم الحساب، فإنّه أرحم الراحمين.

المقصد الخامس
في القسم بغير الله

لا يرتاب مسلم في أنَّ القَسَمَ بغير الله، على وجه إرادة صاحب العظمة والكبرياء والملكوت والقدرة والجبروت، باعث على الخروج عن ربقة المسلمين.

وأمّا إرادة مجرّد التأكيد، فلا يلزم منه كفر ولا إشراك بديهةً؛ إذ ليس مدار الكفر على مجرّد العبارات. ويدلّ على ذلك أنّه قد ورد القسم بغير الله متواتراً في كلام الصحابة والتابعين، بل في كلام خاتم النبيّين ﷺ.

ففي كتاب عليّ عليه السلام إلى معاوية: لعمري لئن نظرتَ بعقلك دون هواك، لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان[1].

وفي كلام له آخر: وأمّا تحذيرك إيّاي أن يحبط عملي وسابقتي في الإسلام، فلعمري لو كنتُ الباغي عليك لكان لك أنْ تحذّرني ذلك.

وفي كتاب معاوية: فإن كنت ـ أبا حسن ـ إنّما تحارب عن الأمرة والخلافة، فلعَمْري لو صحّتْ خلافتك لكنت قريباً من أن تعذر في حرب المسلمين.

وقد وقع هذا القَسَمُ بلفظ «لَعَمْري» في كلام الصحابة والتابعين، في نثرهم وشعرهم كثيراً؛ بحيث يتعذّر ضبطه.

وعن بعض أهل البيت أنَّ واحداً من أصحابه حلفَ عنده: وحقِّ رسول الله ﷺ، وحقِّ عليٍّ ما فعلتُ (كذا)، وأقرَّهُ على ذلك.

---

(١) نهج البلاغة، ٣٦٧.

وفي حديث طلحة: إنَّ رجلاً من أهل نجد جاء يسأل عن الإسلام، فقال: أفلح الرجل ـ والله ـ إنْ صدق[1].

وفي شرح مصابيح الطيّبي عنه ﷺ: أفلح الرجل وأبيه ـ والله ـ. وحُمِلَ على أنّها لم يرد بها حقيقة القَسَم، وإنّما تجري على اللسان لمجرّد التأكيد.

وروى نصر بن مزاحم[2]، عن رجاله، عن عمرو بن العاص أنّه سمعَ رسول الله ﷺ وهو يقول لعَمّار: تقتلُكَ الفئةُ الباغية، وكان ذكره لأهل الشام قبل وقعة صفّين بعشرين سنة، فسمعه عبدالله بن عمر العَبْسي، وكان أعبد أهل زمانه، فخرج ليلاً وأصبح في عسكر عليّ عليه السلام، فحدَّث الناس بقول عمرو، وقال شعراً:

إنَّ الذي جاء من عمروٍ لمأثورُ ... والراقصاتُ بركب عابدينَ له
شكٌّ، ولا في مقال الرسل تحبيرُ ... ما في مقال رسول الله في رجلٍ

ومن الشعر المنقول عن عليّ بن الحسين قوله:

«نحنُ ـ وبيتِ الله ـ أولى بالنبي»

وكم للصحابة والتابعين من حلف بشيبة رسول الله، وضريحه، وعينيه، وتربته، وليس هذا من القَسَم الحقيقيّ في شيء؛ إذِ المراد مجرّد التأكيد والتثبّت دون حقيقة القَسَم التي هي مدار القضايا والحكومات، ويدور عليها ما لزم من الكفّارات.

فما ورد عن ابن عمر، عن النبيّ ﷺ: إنّ الله نهاكم أن تحلفوا بآبائكم[3].

وفي الصحيحين: إنَّ الله ينهاكم أنْ تحلفوا بآبائكم، فمَنْ كان حالفاً فلا يحلف إلاّ بالله، أو يصمت[4].

---

(١) صحيح البخاري (كتاب الأيمان)، حديث ٣؛ سنن أبي داود (كتاب الصلاة)، حديث ١؛ سنن النسائي (كتاب الصلاة)، حديث ٤؛ سنن الدارمي (كتاب الصلاة)، حديث ٢٠٨.

(٢) وقعة صفّين لنصر بن مزاحم، ص ٣٤٣.

(٣) سنن النسائي (كتاب الأيمان والنذور)، ج٤، ص ٤.

(٤) صحيح مسلم (كتاب الأيمان)، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، حديث ٣.

وعن عبد الرحمـٰن بن سمرة، عن النبيّ ﷺ: لا تحلفوا بالطواغي، ولا بآبائكم، رواه مسلم[1].

وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنّه قال: لا تحلفوا بآبائكم، ولا بأُمّهاتكم، ولا بالأنداد، رواه أبو داود، والنسائي[2].

وعن بريدة، قال: قال رسول الله ﷺ: من حلف بآبائه فليس منّا[3].

فهذه الأخبار محمولة على من قصد اليمين الحقيقيّة المثبتة والنافية التي تترتّب عليها الكفّارة، فإنّها لا تكون إلاّ بالله، كما يرشد إليه ذكر الطواغيت، والأنداد.

ونُقِلَ عن أحمد أنَّ الحلف بالنبيّ ﷺ ينعقد لأنّه أحد ركني الشهادة، أو يُحْمَلُ على الكراهة، كما في شرح «المنهاج» وفيه: الحلف بالمخلوق كالنبيّ، والكعبة، وغيرهما مكروه، لقوله ﷺ: لا تحلفوا بآبائكم، ولا بأمّهاتكم، ولا تحلفوا إلاّ بالله.

والتحقيق أنَّ الحلف غير المقصود معناه لا بأس به.

روى أبو هريرة عن النبيّ ﷺ أنّه قال: اليمين على نيّة المستحلف.

القسم الثاني: أن يُرادَ به الإثبات والنفي؛ فإن كان مأخوذاً عن دليل، لم يكن فيه بأس، وترتّب عليه الأثر عند الفقيه المُثْبِت له، ولم يكن عليه شيءٌ، وإنْ قصدَ بالحلف بالمخلوق أنّه ذو الكبرياء والجبروت والمُلك والملكوت، فهو كفر.

وربّما نزل عليه ما رواه ابن عمر، عن النبيّ ﷺ: إنَّ مَنْ حلف بغير الله فقدْ أشرك، رواه الترمذي[4].

---

(١) صحيح مسلم (كتاب الأيمان)، حديث ٦. والطواغي هي الأصنام، ومفردها: طاغية، وكلّ مَنْ طغى وجاوزَ الحدّ المعتاد من الشرّ سُمّي طاغية.

(٢) سنن أبي داود، ج٣، ص ٢٢٢، حديث ٣٢٤٨؛ سنن النسائي (كتاب الأيمان والنذور)، ج ٤، ص ٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٣، حديث ٣٢٥٣.

(٤) سنن الترمذي (كتاب النذور)، باب ٩؛ سنن النسائي (كتاب الأيمان)، باب ٤؛ ابن ماجة (كتاب الكفّارات)، باب ٢؛ سنن الدارمي (كتاب النذور)، باب ٦.

وروى عن ابن عمر، عن النبيّ ﷺ: إنَّ مَنْ حلف بغير الله فقد كفر.

أو ينـزّل هـذا علـى المبـالغـة، كمـا ورد في كثير من فعل المعاصي وترك الواجبات، وما عدا هذا القسم والذي قبله بناؤه على الكراهة؛ إذ لو كان حراماً ما صدر من الصحابة بمحضر من الناس، ولم ينكر عليهم.

مضافاً إلى أنّه ممّا توفر الدواعي على نقله، ولو كان محرَّماً للهجتْ به ألسنة الخطباء والوعَّاظ، ولـم يخـفَ علـى الصبيان، فضلاً عن العلماء الأعيان، وليس الغرض المهمّ سوى دفع الكفر عن الناس إذا صدر منهم مثل ذلك.

وتفصيل الحال: إنَّ القَسَمَ والعهد بغير الله إن قُصِدَ بهما ذو العزّة والجلال، والعلوّ فوق كلّ عالٍ، كما يحلف المربوبُ بربّه، فذلك كفرٌ وإشراكٌ.

وإنْ قصد ترتّب الأحكام عليـه مـن إثبات حقوق الناس، ولزوم الكفّارات، فـذلـك تشـريـعٌ وعصيـان، إلاّ مَـنْ أثبت ذلك بزعم الدليل والبرهان، وإن رأى وجوب العمل بذلك لمجرّد الإكرام؛ لأنَّ عدم العمل ينافي الاحترام، فلا أرى فيه بأساً في المقام.

وإنْ أُريد به مجرّد التأكيد من دون ترتّب شيءٍ من الأحكام، فأولى بالدخول فـي المبـاح، والخروج من الحرام. وإنْ وقعَ لغواً، وهذراً من غير قصدٍ، فلا يُعَدُّ من الأيمان، ولا مدار عليه في شيء كائناً ما كان، والله الموفّق.

المقصد السادس
في الاستغاثة

لا يخفى أنَّ الاستغاثة بالمخلوق على أنّه الفاعل المختار مدخل للمستغيث في أقسام الكفّار، وإنّما المراد منه طلب الشفاعة، وسؤال الدعاء.

وقد روى النسائي، والترمذي في حديث الأعرابي، أنَّ النبيّ ﷺ علَّمَهُ قول: يا مُحمَّد، إنّي توجَّهت بك إلى الله، ونحوه ما في حديث ابن حنيف[1].

وروى البيهقي في خبرٍ صحيح أنّه في أيّام عمر ـ رضي الله عنه ـ جاء رجل إلى قبر النبيّ ﷺ، فقال: يا مُحَمَّد، إستسق لأُمَّتك، فسقوا[2].

وروى الطبراني، وابن المقري، وأبو الشيخ أنّهم كانوا جياعاً، فجاءوا إلى قبر النبيّ ﷺ فقالوا: يا رسول الله، الجوعَ، فأشبعوا.

وروى البيهقي عن مالك الدار خازن عمر ـ رضي الله عنه ـ، قال: أصاب الناس قحط، فذهب إلى قبر النبيّ ﷺ فقال: إستسق لأمّتك فقد هلكوا، فأتاه النبيّ ﷺ في المنام، وقال له: قُلْ لعُمر: إنّهم سقوا.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥].

وعن معاذ أنّه لمّا كان في اليمن جاءه نعي النبيّ ﷺ، فرجع وهو يقول: يا مُحمَّداهُ، يا أبا القاسماهُ، وبقي على ذلك برهة من الزمان. وفيه ظهور بالاستغاثة.

وعن أبي بكر بن محمّد بن الفضل أنَّ بلالاً لمّا أخذَ في النَّزْع، قالت امرأته:

---

(١) سنن الترمذي (كتاب الدعوات)، باب ١١٨؛ سنن ابن ماجة (كتاب إقامة الصلاة والسُّنّة فيها)، باب ١٨٩، حديث ١٣٨٥. وابن حنيف هو عثمان بن حنيف الأنصاري، سكن الكوفة، ومات في خلافة معاوية.

(٢) سنن البيهقي، ج٣، ص٣٢٦.

واويلاه، واحزناه، فقال لها: لا تقولي: واحزناه، فإنّي قصدتُ الذهاب إلى مُحمَّدٍ، وحزبه.

وروى الكازروني ندبة الزهراء عليها السلام، وروى ندبة معاذ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. وعن النعمان بن بشير، قال: أُغمي على عبدالله بن رواحة، فجعلتْ أختُهُ عمرة تبكي وتقول: واجبلاه[1].

وما رُوِيَ عن أبي موسى عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه ما من ميّت يموت، فيقوم باكيه ويقول: واجبلاه، واسيّداه، إلاّ وكّلَ الله به ملكين يلهزانه ويقولان له: أكان هكذا؟ فمبنيٌّ على النهي عن العزاء والبكاء.

وفي قصّة إدريس أنَّ المطر انقطع عن قومه عشرين سنةً، فجاءوا إليه يدعو لهم.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ ملكاً غضب الله عليه، فأُهبط من السماء، فأتى إدريس، فاستشفع به، فدعا له، فأذن له في الصعود، فصعد.

وفي الحقيقة أنَّ المُستغيث بالمخلوق إنْ أراد طلب الدعاء والشفاعة من المُسْتَغاث به، فلا بأس به، وإنْ أراد إسناد الأمور بالاستقلال إليه، فالمسلمون منه براء.

على أنّا بيّنا في ما سبق أنَّ الاستغاثة بدار زيد، وصفاته، وغلمانه، وخَدَمه، رُبَّما أُريد بها الاستغاثة به، فيكون هذا أولى في بيان ذلّ المستغيث، وأنّه لا يرى لسانه أهلاً لأن يجري عليه اسم المولى؛ ولهذا ترى أنَّ طاعة الله تُذكر بعدها طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ورضاه يذكر بعد رضى الله، وإذا انفردتْ إحداهما دخلت فيها الأُخرى.

روى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: مَنْ أطاعني فقد أطاع الله، ومَنْ عصاني فقد عصى الله، ومَنْ يُطع الأمير فقد أطاعني، ومَنْ يَعْصِ الأمير فقد عصاني[2].

---

(١) سنن البيهقي، ج٤، ص ٦٤.

(٢) صحيح البخاري (كتاب الجهاد)، باب ١٠٩؛ صحيح مسلم (كتاب الامارة)، باب ٢٣؛ سنن النسائي (كتاب البيعة)، باب ٢٧؛ ابن ماجة (المقدّمة)، باب ١.

وكيف يستغاث حقيقةً بمن لا يدفع عن نفسه ضُرّاً ولا شرّاً، ولا يملك رزقاً، ولا موتاً، ولا حياةً، ولا نشوراً، المبدئ من تراب، ثمّ نطفة مودعة في الأصلاب، ثمّ جسم مُعَرَّض للبليّات، ثمّ بعدها يكون من الأموات.

وإنّما شرفه بالعبوديّة والانقياد للحضرة القدسيّة، ولولا أمرُ الله ما سُمعَ له كلام، ولا رُفعَ له مقام، وليس بيننا وبينه ربط سوى أمر الملك العلاّم.

فليس المراد بالاستغاثة إلاّ طلب الدعاء من المُسْتغاث به، لما في الحديث القدسيّ: يا موسى، ادعني بلسانٍ لم تَعْصِني فيه، فقال: يا ربِّ وأين ذلك؟ فقال: لسان الغير.

فالمستغيث إنْ طلب أصالةً واستقلالاً من المستغاث به، كان معوّلاً عليه في كلّ أمر يرجع إليه، وإلاّ فالمستغاث به حقيقةً هو الذي تنتهي إليه الأمور.

وكذلك الدعاء إن قُصِدَ أنَّ المدعوَّ هو الفاعل المختار الذي تنتهي إليه الأشياء، فذلك كفر بربِّ السماء، وإن أُريدَ المجاز، فلا يدخل تحت حقيقة الدعاء.

ولا ريب أنَّ كُلَّ مَنْ قال لشخص: أعنّي على بناء الدار، أو قضاء الدَّيْن، أو قال: أعطني، أو غير ذلك، بقصد الدعاء؛ أعني: طلب المربوب من الربّ، فهو كفرٌ وإشراك. وإن قصد الطلب لا على ذلك النحو، لم يكن كفراً.

ولو كان المدار على هذه الصورة، لكُفِّرت الخلائق من يوم آدم إلى يومنا هذا، بل صدور هذه العبارات عن الأنبياء والأوصياء أبين من الشمس.

وكذلك الاستجارة، والندبة، ونحوهما، فإن كانت على الطور المعهود، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ [التوبة: ٦]، ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥]، ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ﴾ [البقرة: ٦١]، فلا محيص عن القول بجوازه. فتفاوت العبارات باختلاف النيّات.

فمن كان داعياً دعاء الأصنام وسائر الأرباب، أو مستغيثاً كذلك، فهو كافر مشرك. وإن أراد المُتَعارف بين سائر الناس، فليس به بأس.

فبحقِّ مَنْ شقَّ سنمعك وبصرك، أنْ تُمْعِنَ في هذا المقام نظرَك، وتُصَفِّي نفسك عن حب الانفراد، كما يلزمنا التخلية عن حبّ متابعة الآباء والأجداد.

ولا فرق بين الأحياء والأموات؛ لأنَّ مَن استغاث بالمخلوق أو استجار، على أنّه فاعلٌ مختار، فقد دخل في أقسام الكفّار، فالاستغاثة بعيسى أو بمريم، حيّين أو ميّتين، تقع على القسمين.

واعتقاد أنَّ الميّت يسمع أو لا يسمع، ليس من عقائد الدين التي تجبُ معرفتُها على المسلمين، فمن اعتقدَها: فإمّا أن يكون مصيباً مأجوراً، أو مخطئاً معذوراً.

ومن ذلك القبيل الألفاظ التي تفيد الرّجاء، والتوكّل، والاعتماد، والتعويل، والالتجاء، والاستعانة بغير الله، فإنّ هذه العبارات لو بني على ظاهرها لم يبقَ في الدنيا مسلمٌ؛ إذ لا يخلو أحدٌ من الاستعانة على الأعداء، والاعتماد على الأصدقاء، والالتجاء إلى الأمراء، ونحو ذلك.

إلاّ أنّه إنْ قصد الملتجأ إليه والمعوّل عليه من المخلوقين له اختيارٌ وتدبيرٌ في العالم لنفسه لا عن أمر الله، فذلك كفرٌ بالله، وإلاّ فلا بأس.

وممّا يناسب نقله في هذا المقام ما نقله القتيبي، قال: كنتُ جالساً عند قبر رسول الله ﷺ فجاء أعرابيٌّ، فسلَّمَ على النبيّ ﷺ، ثمّ أنشأ يقول:

يا خيرَ مَنْ دُفِنتْ بالقاع أعظمُهُ ... فطابَ مِنْ طيبهنَّ القاعُ والأكمُ

نفسي الفداء لقبرٍ أنتَ ساكنُهُ ... فيه العَفافُ، وفيه الجُودُ والكرمُ

ثمّ قال: ها أنا ذا يا رسول الله، فقد ظلمتُ نفسي، وأنا أستغفرُ الله وأسألك يا رسول الله أنْ تستغفرَ لي. قال القتيبي: ثمّ نمتُ، فرأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام، فقال: يا قتيبي، أدركْ الأعرابي وبشِّره أنّه قد غَفَرَ الله له، قال: فأدركتُهُ وبشَّرتُه.

المقصد السابع

في التوسّل

ولا ريب أنّه من سنن المرسلين، وسيرة السلف الصالحين، ودلّت عليه الأخبار والآثار.

نُقِلَ أنَّ آدم لمَّا اقترفَ الخطيئة، قال: يا ربّي، أسألك بحقِّ مُحمَّد ﷺ لما غفرت لي، فقال: يا آدم، كيف عرفت؟ قال: لأنّك لمّا خلقتني نظرتُ إلى العرش، فوجدتُ مكتوباً فيه: «لا إله إلاّ الله، مُحمَّدٌ رسول الله»، فرأيتُ اسمه مقروناً مع اسمك، فعرفتُهُ أحبُّ الخلق إليك. صحّحه الحاكم[1].

وعن عثمان بن حنيف أنّ رجلاً ضرير البصر أتى النبيّ ﷺ فقال: ادعُ الله أن يعافيَني، فقال النبيّ ﷺ: إن شئت صبرتَ فهو خيرٌ لك، وإن شئتَ دعوتُ، قال: فادْعُهُ، فأمره أن يتوضّأ، ويدعو بهذا الدعاء: «اللّهمّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيِّكَ مُحمَّد نبيِّ الرحمة، يا محمّد، إنّي توجَّهتَ بك إلى ربّي في حاجتي ليقضيَها، اللّهمّ شفِّعْهُ فيّ»[2].

وفيه دلالة على جواز الشفاعة في الدنيا، وعلى الاستغاثة، رواه الترمذي، والنسائي، وصحّحه البيهقي، وزاد: «فقام وقد أبصر».

ونقل الطبراني عن عثمان بن حنيف أنَّ رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفَّان في حاجته، فكان لا يلتفت إليه، فشكا ذلك لابن حنيف، فقال له: اذهب

(١) مستدرك الحاكم، ج٢، ص ٦١٥.

(٢) سنن الترمذي (كتاب الدعوات)، باب ١١٩، حديث ٣٥٧٨؛ سنن ابن ماجة (كتاب إقامة الصلاة)، باب ١٨٩، حديث ١٣٨٥.

وتوضّأ وقل: . . . (وذكر نحو ما ذكر الضرير)، قال: فصنع ذلك، فجاء البوّاب، فأخذه وأدخله على عثمان، فأمسكه على الطنفسة، وقضى حاجته[1].

وروي أنّـه لمّـا دعا النبيّ ﷺ لفاطمة بنت أسد، قال: اللّهمّ إنّي أسألك بحقِّ نبيِّك والأنبياء الذين من قبلي. . . (إلى آخر الدعاء)[2].

وفي الصحيح عن أنس أنّ عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ كان إذا أقحط النـاس استسقـى بـالعبّـاس، فقال: اللّهمّ إنّا كنّا نتوسّل إليك بنبيِّكَ فتسقينا، وإنّا نتوسّل إليك بعمّ نبيِّك، ونستشفع إليك بشيبته، فَسُقوا[3].

وروى الشيخ عبد الحميد (بن أبي الحديد) عن عليّ عليه السلام أنّـه قال: كنتُ مـن رسـول الله كـالعضـد مـن المنكب، وكـالـذراع مـن العضـد، ربّاني صغيراً، وواخـانـي كبيـراً، سـألتُـه مرّةً أن يدعوَ لي بالمغفرة، فقام فصلّى، فلمّا رفع يديه سمعتُـهُ يقول: اللهمّ بحقِّ عليّ عندك اغفر لعليّ، فقلتُ: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال: أوَ أحد أكرم منك عليه، فأستشفعُ به إليه؟[4].

وفي هذين الخبرين دلالةٌ على شفاعة الدنيا.

وفي مسند ابـن حنبل أنّ عائشة قال لها مسروق: سألتك بصاحب هذا القبر مـا الـذي سمعـتِ مـن رسـول الله؟ (يعنـي: فـي حـقِّ الخوارج)، قالتْ: سمعتُهُ يقـول: إنّـهم شـرُّ الخلـق والخليقـة، يقتلهـم خير الخلق والخليقة، وأقربهم عند الله وسيلة[5].

وعـن الأعمـش أنّ امـرأةً ضـريـرةً بـقيت ستّـة ليـالٍ تُـقْسِـمُ على الله بعليّ، فعوفيت.

---

(١) سنن ابن ماجة (كتاب إقامة الصلاة)، باب ١٨٩، حديث ١٣٨٥.

(٢) كنز العمّال، ج٦، ص ١٨٩.

(٣) صحيح البخاري (كتاب الاستسقاء)، باب ٣، و (كتاب فضائل أصحاب النبيّ)، باب ١١.

(٤) شرح نهج البلاغة، ج٤، ص ٥٥٨.

(٥) سنن الدارمي (كتاب الجهاد)، باب ٣٩؛ مسند أحمد بن حنبل، ج١، ص ١٤٠؛ سنن ابن ماجة (المقدّمة)، باب ١٢، حديث ١٧٠.

فما رواه جبير بن مطعم عن النبيّ ﷺ أنّه أتاه أعرابيّ، فقال: جهدت الأنفس، وجاع العيال، فاستسق لنا، فإنّا نستشفع بك إلى الله، ونستشفع بالله عليك، فقال النبيّ ﷺ: «ويحك إنّه لا يستشفع بالله على أحد، شأن الله أعظم»، فليس ممّا نحن فيه؛ لأنّه نهى عن الاستشفاع بالله لا بأحد إلى الله.

وعن عليّ أنّه قال لسعد بن أبي وقاص: أسألك برحم ابني هذا، وبرحم حمزة عمي منك ألاّ تكون مع عبد الرحمٰن[1].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّ النبيَّ أسرَّ إلى فاطمة سرّاً، فبكتْ بكاءً شديداً، فسألتُها، فقالت: ما كنتُ لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ، فلمّا قُبِضَ سألتُها وقلتُ لها: عزمتُ عليكِ بما لي عليك من الحقّ، (. . . الخبر)[2].

وروى أبو مخنف عن أبي الخليل، قال: لمَّا نزل طلحة والزبير في موضع (كذا)، قلت: ناشدتكما الله وصُحبة رسول الله ﷺ . . .

وعن عليّ عليه السلام أنّ يهوديّاً جاء إلى النبيّ ﷺ، فقام بين يديه، وجعل يحدّ النظر إليه، فقال: يا يهودي، ما حاجتُك؟ فقال: أنت أفضل أم موسى؟ فقال له: إنّه يكره للعبد أن يزكّي نفسه، ولكن قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، إنَّ آدم لمّا أصابته خطيئته التي تاب منها كانت توبته: «اللّهمّ إنّي أسألُكَ بمُحمَّد وآلِ مُحمَّد لما غفرتَ لي»، فغُفِرَ له[3].

وعن عليّ عليه السلام أنّه بعد دفن النبيّ ﷺ قام عند قبره الشريف، فقال مخاطباً له: طبتَ حيّاً وطبتَ ميّتاً، انقطع عنّا بموتك ما لم ينقطع بموت أحد سواك من النبوّة والأنباء، وأخبار السماء، (والحديث طويل)، إلى أن قال: بأبي أنت وأمّي اذْكُرْنا عند ربّك، واجعلنا من بالك وهمّك.

---

(١) الترمذي، ج٥، ص ٦٠٧.
(٢) صحيح البخاري، ج٤، ص ٢١٠؛ صحيح مسلم، ج٤، ص ١٩٠٥؛ الترمذي، ج٥، ص ٦٥٨.
(٣) كنز العمّال، ج١١، ص ٤٥٥.

ونقل الشيخ عبد الحميد أنَّ معاوية سأل عقيلاً عن عليّ عليه السلام، فقال له عقيل: يا معاوية، جاءته زقاق عسل من اليمن، فأخذ الحسين منها رطلاً واشترى إداماً لخبزه، فلمّا جاء عليّ ليقسّمها قال: يا قَنْبَرُ، أظنُّ أنّه قد حَدَثَ بهذا حدثٌ، قال: نعم، وأخبره بقصّة الحسين عليه السلام، فَغَضِبَ، وقال: عليَّ بحسين، فرفع الدرة عليه، وقال: بعمّي جعفر، (وكان إذا سئل بحقّ جعفر سكن)، فأجابه الحسين بما أجاب.

ونقل الشيخ عبد الحميد أنَّ رجلاً وفد من مصر، فاستعاذ بعُمر.

وكيف كان، فقد بانَ أنَّ مَنْ توسَّلَ إلى الله بمعظَّم من: قرآن، أو نبيٍّ، أو عبدٍ صالح، أو مكانٍ شريف، أو بغير ذلك، فلا بأس عليه، بل كان آتياً بما هو أولى وأفضل.

ولا بأس بالتوسّط بحقّ المخلوقات، فإنّ للمولى على عبده حقَّ المالكيّة، وللعبد حقّ المملوكيّة، وللخادم حقَّ الخدمة، وللأرحام حقَّ الرحم، وللصديق حقَّ الصداقة، وللجار حقَّ الجوار، وللصاحب حقَّ الصحبة. فالحقّ عبارةٌ عن الرابطة بأيّ نحوٍ اتّفقت، وعلى أيّ جهةٍ كانت.

وعلى ذلك جرتْ عادة السلف من أيّام النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى يومنا هذا، لا ينكره أحدٌ من المسلمين، والدعوات والمواعظ مشتملة عليه، والإجماع منعقدٌ عليه، فلم يبقَ في المقام إشكال، ولا بقي محلٌّ للقيل والقال، والله وليّ التوفيق، وهو أرحم الراحمين.

المقصد الثامن
في الشفاعة

الشفاعة ـ في الحقيقة ـ قِسمٌ من الدعاء والرجاء، وليس من خواص الأنبياء والأوصياء، وليس لأحد على الله قبول شفاعته، وإنّما ذلك من ألطافه ومننه، ولا شفاعة إلاّ بإذنه ورضاه، والأخبار فيها متواترة.

روى محمّد بن عمرو بن العاص، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: من سأل الله لي الوسيلة، حلَّتْ عليه الشفاعة، رواه مسلم[1].

وعن جابر عن النبيّ ﷺ: «من سمع الأذان ودعا بكذا، حلّت له شفاعتي يوم القيامة»، رواه البخاري[2].

وعن عبدالله بن عبّاس، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: ما من رجل مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلاً، لا يُشْرِكون بالله شيئاً، إلاّ شفَّعهم الله فيه، رواه مسلم[3].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: ما من ميّتٍ تصلّي عليه أمّةٌ من الناس يبلغون مائة، كلّهم يشفعون له إلاّ شُفِّعُوا فيه، رواه مسلم[4].

وعن جابر، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: أُعطيتُ خمساً... (وعدَّ منها الشفاعة)[5].

---

(١) صحيح مسلم (كتاب الصلاة)، باب ١١؛ سنن أبي داود (كتاب الصلاة)، باب ٣٦؛ سنن الترمذي (كتاب المناقب)، باب ١؛ سنن النسائي (كتاب الأذان)، باب ٣٧؛ مسند أحمد بن حنبل (كتاب الثاني)، الباب ١٦٨.

(٢) البخاري (كتاب الأذان)، باب ٨؛ صحيح مسلم (كتاب الصلاة)، باب ١١؛ سنن أبي داود (كتاب الصلاة)، باب ٣٦.

(٣) صحيح مسلم (كتاب الجنائز)، باب ١٩ (مَنْ صلّى عليه أربعون شفعوا فيه)، حديث ٥٩.

(٤) المصدر نفسه، باب ١٨، حديث ٥٨.

(٥) المصدر نفسه (كتاب المساجد ومواضع الصلاة)، باب ٥، حديث ٣.

وعن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ: أنا أوّل شافع وأوّل مشفّع في القيامة، ولا فخر[1].

وعن جابر عن النبيّ ﷺ: أنا أوّل شافع وأوّل مشفع. ونحوه عن أنس[2]، وأُبيّ بن كعب[3].

وعن جبير بن مطعم، عن عثمان بن عفّان، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: يُشَفَّعُ يوم القيامة ثلاثة (وعدَّ منهم الأنبياء).

وعن أبي سعيد، عن النبيّ ﷺ أنّ الشفاعة على مراتب الناس في القابليّة[4].

وعن عبدالله بن مالك عن أبيه، عن النبيّ ﷺ أنّه: أتاني آتٍ من ربّي، فخيَّرني بين أن يدخل نصف أُمّتي الجنّة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة.

وعن عبدالله بن أبي الجذعاء، عن النبيّ ﷺ: إنّه والدارمي يدخل الجنّة بشفاعة رجلٍ[5] من أمّتي أكثر من بني تميم، رواه الترمذي والدارمي[6].

وعن أنس قال: سألتُ النبيَّ ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: أنا فاعل، قلتُ: فأين أطلبك؟ قال: أوّلاً على الصراط، قلت: فإن لم ألقك؟ قال: عند الميزان، قلت: فإن لم ألقك؟ قال: عند الحوض، فإنّي لا أخطئ هذه المواضع، رواه الترمذي[7].

وعن أبي سعيد الخدري، عن النبيّ ﷺ: إنَّ الله يقول بعد فراغ الشافعين

---

(١) صحيح مسلم (كتاب الفضائل)، باب ٢ (تفضيل نبيّنا ﷺ على جميع الخلق)، حديث ٢٢٧٨.
(٢) المصدر نفسه (كتاب الأيمان)، باب ٣٣٠.
(٣) سنن الدارمي (المقدّمة)، الباب ٨.
(٤) سنن ابن ماجة، ج٢، ص ١٤٤٣.
(٥) في المطبوع: «بشفاعتي رجال».
(٦) الترمذي، ج٤، ص ٥٤١.
(٧) المصدر نفسه، ج٤ (باب صفة القيامة)، ص ٥٣٧.

مـن الشفـاعـة: شُفِّعت الملائكة، وشُفِّعَ النبيّون، وشُفِّعَ المؤمنون، ولم يبقَ إلاّ أرحمُ الراحمين[1].

وعـن أنـس عن النبيّ ﷺ أنّه يحبس المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنـا، فيـأتـون آدم، فيعتـذر بخطيئتـه، ثـمّ إبـراهيم، فيعتذر بثلاث كذبات كذبهنّ، ثمّ موسى، فيعتذر بقتل النفس، ثمّ عـيسى، فيقول: لست هناك، فيقول الله تعالى بعد أن أسجد له: إشفع تشفع.. (الخبر، وهو طويل)[2].

وعـن النبـيّ ﷺ أنَّ مَلَكـاً غَضِـبَ عليـه، فأُهبِـطَ من السماء، فجاء إلى إدريس فقال له: اشفع لي عند ربّك، فـدعا له، فـأُذن لـه في الصعود. وفيه دلالةٌ علـى الشفـاعـة فـي الـدنيـا. وستجـيء فـي بـاب «زيارة القبور» أخبارٌ كثيرةٌ عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «مَنْ زارني كنتُ له شفيعاً»[3].

وبيـان الحـال: إنّ الشفـاعـة إن كـانت من قبيل الدعاء، فيرجع طلبها إلى التمـاس الـدعاء مـن الأنبيـاء والأوليـاء، فتكون عبارة عن دعاء مخصوص لنجاة الغيـر، أو قضـاء حـاجتـه فـي أمور الدنيا والآخرة، فلا كلام ولا بحث في جواز طلبها من كلّ أحد، فـهي كمـا لو سألتَ إخوانك الدعاء. ويؤيّد ذلك أنّه لمّا سئل إدريس عليه السلام الشفاعة دعا.

ولا فرق بين الأحياء والأموات، فإنّا سنُبيِّنُ ـ إن شاء الله ـ تواتر الأخبار في أنَّ الأمـوات يسمعـون وينطقـون، لكنَّ الناس لا يسمعون كلامهم. فالشفاعة بهذا المعنى لا غضاضة في طلبها؛ إذ لسنا في ذلك بمنزلة من قالوا: لا طاقة لنا بعبادة الله، ونحن نعبد الأصنام، وهم يوصلوننا إلى الله.

وإنْ أُريـدَ بـالشفـاعـة منصـبٌ أعطـاه الله لنبيّـه ﷺ وأوليـائـه، فيدفعون بـالإذن العـامّ عـن النـاس؛ بمعنـى أنَّ الله أذن إذنـاً عامّاً لنبيّه ﷺ في إنقاذ

---

(١) الترمذي، ج٤، ص ٥٤١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٣٧.

(٣) سنن البيهقي، ج٥، ص ٢٤٥.

بعض أهل العذاب من العذاب يوم يقوم الحساب؛ فبهذا المعنى تكون مخصوصةً في الآخرة.

ولا ريب أنّ المستشفع بالنبيّ ﷺ، والأولياء في دار الدنيا، يريد المعنى الأوّل.

فليتَ شعري ما الذي يُنْكَرُ من طلب الشفاعة؟ أمن جهة خطاب الموتى؟ فذلك لا يوجب كفراً ولا إشراكاً، لو كان خطأً، فكيف لو كان صواباً، أو من جهة إسناد الأمر إلى غير الله سبحانه؟ وهذا أعجب من السابق، فإنَّ الداعي والساعي في حاجة أحد إلى مولاه لا يرتفع عن درجة العبوديّة، ولا سيّما إذا لم يحدث شيئاً إلاّ عن إذنه.

ومن البديهة[1] أنّ العبيد والخدّام القائمين بشرائط العبوديّة والخدمة مع الإذن يُشَفَّعونَ عند مواليهم في قضاء حوائج الناس، ولا يخرجهم ذلك عن العبوديّة والخدمة، بل هذا نوع من العبوديّة.

وفي أحاديث الشفاعة ما يدلّ على عموم الشفاعة في دفع المضار الدنيويّة والأخرويّة.

وقد نقل عن الصحابة بطرق معتبرة أنّهم كانوا يلجأون إلى قبر النبيّ ﷺ، ويندبونه في الاستسقاء ورفع الشدائد والأغراض الدنيويّة.

روى البيهقي بطريق صحيح عن مالك الدارخازن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنّه أصاب الناس قحط، فذهب رجل إلى قبر النبيّ ﷺ، فقال: يا رسول الله ﷺ، إستسق لأُمّتك فقد هلكوا، فأتاه النبيّ ﷺ في المنام، فقال له: قل لعمر: قد سُقوا[2].

وقد روي أنَّ من رأى النبي ﷺ في نومه فكأنّما رآه في يقظته؛ لأنَّ الشيطان لا يتمثّل به[3].

(١) في النسخة المطبوعة: «الأمور البديهيّة».
(٢) البيهقي، ج٣، ص ٣٤٤.
(٣) صحيح مسلم (كتاب الرؤيا)، باب ١، حديث ١١.

وروى البيهقـي بطـريق صحيح أنَّ رجلاً في أيّام عمر ـ رضي الله عنه ـ جاء إلى قبر النبيّ ﷺ، فقال: يا مُحمَّد، إستسقِ لأُمَّتك[1].

وروى الطبـرانـي وابـن المقـري أنّـهم كانوا جياعاً، فجاءوا إلى قبر النبيّ، فقالوا: يا رسول الله، الجوع، فأشبعوا.

والغرض أنّ ذلك ظاهر بـين الصحـابـة والسلف، لا يتناكرونه أبداً؛ وحيث كان لا يزيـد علـى سـؤال الـدعـاء، واتّضح في البحث الآتي أنَّ الأنبياء والأولياء أحياء، لا يبقى كلام أصلاً.

(١) البيهقي، ج٣، ص ٣٥٠.

الخاتمة

الباب الأوّل : في حياة الأموات بعد موتهم

الفصل الأوّل : في حياة النبيّ ﷺ بعد موته

الفصل الثاني : في حياة سائر الشهداء والأنبياء

الفصل الثالث: في حياة سائر الموتى

الباب الثاني : في الزيارات

الفصل الأول : في زيارة قبر النبيّ ﷺ

الفصل الثاني : في زيارة باقي القبور

الباب الثالث : في التبرّك بالقبور ونحوها

الباب الرابع : في بناء قبور الأنبياء والأولياء وتعميرها وتعلية بنائها وتشييد أركانها

كشفُ الجواب عمّا تَضَمَّنَهُ ذلك الكتاب

الباب الأول

في حياة الأموات بعد موتهم

وفيه فصول:

الفصل الأول

في حياة النبيّ ﷺ بعد موته

وإنّه يسمع الكلام ويردّ الجواب، كما في حياته، غير أنّ الله حبس سمع الناس إلاّ قليلاً من الخواص، ولا بعد في ذلك بعد الإقرار بعموم قدرة الجبّار، فإنّ من أودع تلك النطفة روح الإنسان، قادر أن يودعها في أيّ محلّ كان.

ولا ينافي ذلك إطلاق اسم الموت عليه، وأنَّ الحياة إنَّما هي وقت البعث؛ لأنَّ المراد أنَّ عود تلك الأجسام على الحال السابق والكيفيّة السابقة، إنّما يكون في ذلك الوقت، وأنّ ظهور ذلك للناظرين، إنّما يكون في ذلك الحين، ولا بُدَّ من أن تتلقّى ما ورد عن النبيّ الكريم، بأشدّ القبول والتسليم.

روي عن أُمِّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ، قالت: رأيتُ النبيّ ﷺ والتراب على شيبته، فسألتُه، فقال: شهدتُ قتل الحسين عليه السلام.

وعن ابن عبّاس أنّه رأى النبيّ ﷺ في المنام، وفي يده قارورة، فقلت: وما هذه؟ فقال: هذا دم الحسين عليه السلام [1].

وقال المبارزي: نبيّنا حيٌّ بعد وفاته.

---

(١) تاريخ ابن عساكر، ص ٢٦٣.

وقـال شيـخ الشـافعي[١]: نبيّنا حيٌّ بعد وفاته، فإنّه يستبشر بطاعات أمّته، ويحزن من معاصيهم، وتبلغه صلاة مَنْ يُصَلِّي عليه.

وعن عليّ عليه السلام أنَّ أعرابياً جاء إلى قبر النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال: يا رسول الله، استغفر لي، فنودي من داخل القبر ثلاث مرّات: قد غفر الله لك[٢].

وروى أبو داود في مسنده، عن أبي هريرة، مرفوعاً عن النبيّ صلى الله عليه وآله، قال: ما مِنْ أحدٍ يسلِّم عليَّ إلاَّ ردَّ اللهُ روحي حتى أردَّ عليه.

وذكره ابن قدامة من رواية أحمد أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: ما مِنْ أحد يُسلِّم عليَّ عند قبري إلاَّ ردَّ الله عليَّ روحي. وذكره بعض أكابر مشايخ البخاري.

وفي خبر النسائي وغيره، عن النبيّ صلى الله عليه وآله، قال: إنَّ لله ملائكة سيَّاحين في الأرض، يبلغـونـنـي مـن أُمّتي السلام.

فعلى هذا، لا فرق بين السلام من قربٍ، أو بعد.

وعن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: مَنْ صلَّى عليّ عند قبري سمعتُه[٣].

وعن أبي هريرة، عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: من صلّى عليَّ عند قبري، وكّل الله به ملكاً يبلغني[٤].

وروى ابن أوس مرفوعاً عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: أكثروا عليّ من الصلاة يـوم الجمعـة، فـإنّ صلاتكم معروضةٌ عليَّ، قالوا: أوَ كيفَ تعرض عليك وأنت رميـم؟! فقال: إنَّ الله حرَّم على الأرض لحوم الأنبياء[٥]. وهذا يعمّ الأنبياء صلّى الله عليهم.

---

(١) عبد القاهر بن طاهر البغدادي الأسفراييني، ولد ونشأ في بغداد، ورحل إلى خراسان واستقرَّ في نيسابور، ومات في أسفرائين. له مؤلّفات كثيرة.

(٢) كنز العمّال، ج١، ص٥٠٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٤٨٨، الباب السادس في الصلاة عليه وعلى آله، حديث ٢١٩٧.

(٤) المصدر نفسه، حديث ٢١٩٦.

(٥) المصدر نفسه، حديث ٢١٤١.

وروى الحافظ عن النبيّ ﷺ أنّه قال: علمي بعد مماتي كعلمي في حياتي[1].

وعن النبيّ ﷺ: إنَّ الله وكَّلَ مَلَكاً يُسْمِعُني أقوالَ الخلائق، يقوم على قبري، فلا يُصلّي عليَّ أحدٌ إلاّ قال: يا مُحمَّد، فلان بن فلان يُصلّي عليك، صلّوا عليّ حيثما كنتم، فإنّ صلاتكم تبلغني.

وعن النبيّ ﷺ: إنَّ أعمالكم تُعْرَضُ عليّ[2].

والأخبار في ذلك أكثر من أن تحصى، وفيها دلالة على أنّه ﷺ يُخاطَبُ في مماته كما يُخاطَبُ في حياته، بل يظهر من بعض الروايات[3] أنَّ كلامه يسمعه بعض الخواص.

أخرج أبو نعيم في «دلائل النبوّة»، عن سعيد بن المسيب، قال: لقد كنتُ في مسجد رسول الله ﷺ، فما يأتي وقت صلاة إلاّ سمعتُ الأذان من القبر.

وأخرج ابن سعد في «الطبقات»، عن سعيد بن المسيب، أنّه كان يلازم المسجد أيّام الحرَّة، فإذا جاء الصبح سمع أذاناً من القبر الشريف[4].

وأخرج زبير بن بكار[5] في أخبار المدينة، عن سعيد بن المسيب، قال: لم أزل أسمع الأذان والإقامة من قبر رسول الله ﷺ أيّام الحَرَّة، حتى عاد الناس.

وأخرج الدارمي في مسنده، عن مروان، عن سعيد بن عبد العزيز أنّه كان لا يعرف وقت الصلاة إلاّ بهمهمةٍ تخرج من القبر[6].

---

(١) كنز العمّال، ج١، الباب السادس، حديث ٢٢٤٢.
(٢) صحيح مسلم (كتاب المساجد)، باب ٥٧؛ مسند أحمد بن حنبل، الكتاب الخامس.
(٣) في النسخة المطبوعة: «الأخبار».
(٤) الطبقات الكبرى، ج٥، ص ١٣٢.
(٥) الزبير بن بكّار: من أهل المدينة، تُوفّي سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م عن ٨٤ عاماً، له مؤلّفات في الأنساب والتاريخ.
(٦) سنن الدارمي، ج١، ص ٥٦.

الفصل الثاني
في حياة سائر الشهداء والأنبياء

قد سبق أنّ الأرض لا تأكل لحومهم.

قال البيهقي في كتاب «الاعتقاد»[1]: إنَّ الأنبياء بعدما قُبِضوا رُدَّتْ إليهم أرواحهم، فهم أحياءٌ كالشهداء.

وقال القرطبي في «التذكرة»[2]: الموت ليس عدماً محضاً، يدلّ على ذلك أنّ الشهداء أحياء، فالأنبياء أولى، وقد صحَّ أنَّ الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وأنَّ النبيّ ﷺ اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء.

وقال الأستاذ أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي شيخ الشافعي: إنَّ الأنبياء لا تبلى أجسادهم، ولا تأكل الأرض منهم شيئاً، وقد التقى نبيُّنا مُحمَّد ﷺ مع إبراهيم، وموسى بن عمران.

وعن أنس، عن النبيّ ﷺ أنَّه مرَّ بقتلى بدر فكلّمهم، فقال له أصحابه: كيف تُكلّم أجساداً لا أرواح فيها؟! فقال: لستُم أسمعَ منهم لكنّهم لا يتكلّمون.

وعن قتيبة وأبي الفضل، عن ابن عبّاس أنَّ الحواريّين قالوا لعيسى: أحي لنا يحيى بن زكريا، حتى ننظر إلى وجهه، فخرج معهم وأحياه، وإذا نصف شعر رأسه أبيض، وقد كان أسود، فسألوه، فقال: لمّا نوديت زعمتُ أنّها القيامة، فقال عيسى: أتريد أنْ أسأل الله أن يردّك إلى الدنيا؟ فقال: إنّ مرارة الموت لم تخرج من حلقي بعد.

---

(١) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، للحافظ البيهقي الشافعي، طبع في بيروت سنة ١٩٨٨م.
(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، لشمس الدين محمّد بن أحمد القرطبي، المُتوفّى سنة ٦٧١هـ، وهو مطبوع بالقاهرة سنة ١٩٨١م، ضمن جزءين.

وعن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ أنّه مرَّ بإبراهيم يُصلّي، وبموسى يُصلّي. وفي حديث المعراج أنّه مرَّ بكثير من الأنبياء يصلّون.

وقال الحافظ شيخ السنّة أبو بكر البيهقي في «الاعتقاد»: إنّ الأنبياء تُردُّ إليهم أرواحهم بعدما يقبضون، فهم أحياء عند ربّهم كالشهداء، وقد رأى النبيّ ﷺ جماعة منهم، وصلُّوا خلفه، وقد أخبر هو عن ذلك، وخبرُهُ صدق، وأنَّ صلاتنا تُعرضُ عليه، وأنَّ الأرض لا تأكل من لحمه.

وعن الشيخ عفيف الدين أنَّ الأولياء من جملة خصائصهم رؤيا الأنبياء.

وقال الشيخ تقي الدين السبكي: إنَّ حياة الأنبياء والشهداء في القبور كحياتهم في الدنيا، ويدلّ عليه صلاة موسى وجماعة من الأنبياء ليلة الإسراء مع النبيّ ﷺ.

وروى الثقات عن أنس مرفوعاً، عن النبيّ ﷺ: إنَّ الأنبياء أحياءٌ في قبورهم.

وعن النبيّ ﷺ أنّه قال: مررتُ بقبر موسى بن عمران فرأيتُهُ يُصلّي[1].

وقال الله تعالى في حقّ مَنْ قُتلوا في سبيل الله: ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، إلى غير ذلك من الأخبار.

---

(١) تُراجع هذه الأحاديث في كنز العمّال، المجلّد الخامس، الفصل الثالث: في زيارة القبور.

الفصل الثالث

في حياة سائر الموتى

روى ابن عبّاس مرفوعاً عن النبيّ ﷺ أنّه قال: ما من أحدٍ يمرّ بقبر أخيه المؤمن فيسلّم عليه إلاّ عرفَهُ، وردَّ عليه السلام.

وفي رواية: ما من أحدٍ يمرّ بقبر رجلٍ يعرفه إلاّ عرَفَهُ، وردَّ عليه السلام[1].

ونقل أبو عبدالله البخاري أنَّ الشهداء وسائر المؤمنين إذا زارهم المسلم وسلَّم عليهم عرفوه، وردّوا عليه السلام.

وروى الثعلبي في تفسيره، وابن المغازلي الواسطي في «المناقب»: أنَّ النبيَّ ﷺ، وأصحابه لمّا حملهم البساط، وصَلَوا إلى موضع أهل الكهف، فقال: سلِّموا عليهم، فسلَّموا عليهم، ولم يردّوا، فسلّم النبيّ ﷺ عليهم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله[2].

وأخرج الشيخ ابن حيارة في كتاب «الوصايا»، عن قيس، قال: قال النبيّ ﷺ: من لم يوص، لم يُؤْذَنْ له في الكلام مع الموتى، قيل: يا رسول الله، الموتى يتكلّمون؟! فقال: نعم، ويتزاورون.

وعن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ أنّه رأى جعفراً يطير في الجنّة.

ونقل أبو بكر محمّد بن عبدالله الشافعي أنّ عيسى لمّا دفن مريم، قال: السلام عليك يا أمّاه، فأجابته من جوف القبر: وعليك السلام حبيبي، وقرّة عيني، فقال لها: كيف وجدتِ طعم الموت؟ فقالت: والذي بعثك بالحقّ ما ذهبتْ مرارة الموت من حَلْقِي، ولا خشونته من لساني.

---

(١) كنز العمّال، ج٥، ص ٦٤٦.

(٢) ابن المغازلي، مناقب عليّ بن أبي طالب، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤.

وروى الحاكم عن سالم بن أبي حفصة قال: توفّي أخٌ لي، فوضعتُهُ في القبر، وسوَّيتُ عليه التراب، ثمّ وضعتُ أذني على لحده، فسمعتُ قائلاً يقول له: مَنْ ربُّكَ؟ فسمعتُ أخي يقول بصوت ضعيف: ربّي الله، فقال له: وما دينُك؟ فسمعتُ أخي يقول بصوتٍ ضعيف: ديني الإسلام، فسمعتُهُ يقول له: ومَنْ نبيُّك؟ فسمعتُهُ يقول بصوت ضعيف: مُحمَّد نبيّي، فسمعتُهُ يقول له: نَمْ نومَ العروس، وسمعتُ المَلَكَ الآخر يقول له: أبشِرْ برَوْحٍ وريحان، وربٌّ غير غضبان[1].

وفي الأخبار، عن عمر بن الخطّاب أنّه قال: ما من ميّت يموت، يوضع على سريره، فيُخْطَى ثلاثَ خُطوات، إلاّ ويُنادى بنداءٍ يسمعه ما شاء الله من الخلائق غير الثقلين، فيقول: يا إخوتاه، يا خدماه، يا حملة نعشاه، لا تغرَّنكم الدنيا كما غرَّتني، ولا يلعبنَّ بكم الزمان كما لعب بي، خلَّفتُ ما جمعتُ لورثتي، ولم يحملوا من خطيئتي شيئاً، والديّان يحاسبني، وأنتم تشيّعون جنازتي، ثمّ تدعونني في لحدي.

وَزِيدَ في آخر: ثمّ تسلمونني إلى منكر ونكير، واندامتاه، واندامتاه، واندامتاه[2].

وعن الفقيه الزاهد إسماعيل بن الحسن، عن عمر بن الخطّاب أنّه دخل المقابر، فنادى: يا أهل المقابر، الأموال قد قُسِّمتْ، والدور قد سُكنتْ، والأزواج قد نُكحتْ، فهذا خبر ما عندنا، فأخبرونا ما عندكم، قال: فهتف به هاتف، وهو ينادي ويقول: يابن الخطّاب، وجدنا ما عملنا ربحاً، وما خلفنا خسراناً، والجبّار سألنا عن جميع ما فعلنا، ثمّ سكت.

وعن كعب، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: لا يمرُّ أحدٌ بالمقابر إلاّ ويناديه أهل القبور: يا غافلاً لو علمتَ بما نحن فيه لذاب لحمك وجسمك، كما يذوب الثلج في النار[3].

---

(١) كنز العمّال، ج١٥، ص ٦٠٥.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ٥٩٦.
(٣) في النسخة المطبوعة: «الملح بالماء».

وعن الضحّاك، عن ابن عبّاس، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: إنّ الموتى ينادون في كلّ يوم ثلاث مرّات من قبورهم: يا أهل الديار، عجّلوا عجّلوا، فإنّما نحن محبوسون من أجلكم، الرحيل الرحيل، لا تحبسوا إخوانكم، خرّبوا ما بنيتم، واتركوا ما جمعتم، نوّرتم البيوت، وأظلمتم القبور، وبنيتم البيوت، ونسيتم القبور، وعمرتم البيوت، وخربتم القبور، ووسّعتم البيوت، وضيّقتم القبور، (وذكروا غير ذلك)[1].

وعن أبي عبدالله محمّد بن عمر، يروي عن عمر، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: ما من يوم يمضي إلاّ ومَلَكٌ يهتف: يا أهل القبور، مَنْ تغبطون اليوم؟ فيقولون: نغبط أهل المساجد، يصلّون في مساجدهم، ويصومون ويصدّقون، ولا نقدر نصلّي ونصوم ونتصدّق.

وعن محمّد بن أبي عبدالله بن الفضل، عن محمّد بن كعب، قال: مرَّ عيسى على قبر، فرأى فيه عذاباً شديداً، فدعا الله حتى أحياه، فقال له عيسى: فَلِمَ تُعذَّب؟ قال: كنتُ جالساً في سوق مصر، وقد أكلتُ شيئاً، فأخذتُ عُودةً من حزمة شوك لأُخلّل أسناني بها، ومتُّ منذ أربعة آلاف سنة وأنا في عذابها، ثمّ قال: يا روح الله، منذ أربعة آلاف سنة ومرارة الموت باقيةٌ في حَلْقي. فقال عيسى: اللّهمّ يسِّرْ علينا سكرات الموت.

وعن وهب بن منبة أنّ عيسى عليه السلام مرَّ على نهرٍ فيه ماء عذب، وحوله خابية[2]، كلّ ما يوضع فيها من ذلك الماء يصير مالحاً، فقال: إلـهي، ما خبر هذا الماء المالح؟! فأذن الله للخابية بالكلام، فقالت: إنّي كنتُ آدمياً، فبقيتُ في قبري ثلاثمائة سنة، ثمّ جاء لبَّانٌ، فضرب ترابي لِبْنَاً، وبنيت في قصر ثلاثمائة سنة، ثمّ خرب القصر، فبقيتُ تراباً مائتي سنة، ثمّ جاء شخص فجعلني حبّاً، ووضعني سقايةً على شاطئ هذا النهر من مائة سنة، وكلّ ما يجعل فيَّ يكون

---

(١) كنز العمّال، ج١٥، ص٦٢٦.

(٢) الخابية: الجرَّة الكبيرة المُستَعملة لحفظ الماء.

مالحاً، لما فيّ من مرارة نزع الروح، وأنا معذّبٌ منذ مِتُّ؛ لأنّي أخذت إبرةً من جاري، وما رددتُها حتى مِتُّ، فما أدري أنَّ عِذابي أشدّ أم مرارة الموت، فقال عيسى: اللّهُمّ يسِّرْ عليَّ الموت، ونجّني من عذاب القبر... (الحديث). وقد ذكرنا من مضمونه محلّ الحاجة.

وعن عائشة، عن النبيّ ﷺ: إنَّ أشدّ الأحوال على الميّت حين يدخل الغسّال داره ليغسّله، فيخرج خواتم الشبّان من أصابعهم، وينزع قميص العروس من بدنها، ويرفع عمائم المشايخ عن رؤوسهم. فعند ذلك يقول بصوتٍ يسمع الخلائق غير الثقلين: يا غسّال، بالله عليك انزع ثيابي برفق، فإنّي الساعة استرحتُ من مخاليب مَلَك الموت، فإذا صبّ عليه الماء صاح كذلك، فإذا رُفِعَ عن المغتسل، وشدَّ مواضع قدميه بالكفن، يقول: بالله عليك لا تشدّ رأس كفني ليرى وجهي أهلي وأولادي وعروسي التي كنتُ أُحبُّها، وينظرُ إلى وجهي أقربائي، وأحبّائي، وإخواني، وجيراني، ورفقائي، فإنّ هذه آخر رؤياي.

فإذا خرج من الدار، نادى: بالله عليكم يا حملة نعشي، لا تُعَجِّلوا بي، حتى أُودِّعَ داري التي بنيتُها، وزيّنتُها، ونقشتُها بأنواع النقوش، وأهلي ومالي وأولادي، فإنّ هذا خروجٌ لا مردَّ بعده إلى يوم القيامة.

فإذا رُفعت الجنازة، نادى: يا حملَة نعشي، بالله عليكم لا تُعجِّلوا بي، حتى أسمع أصوات أولادي الذين يعولُونَ خلف جنازتي، وعروسي التي تبكي عليَّ، ووالدي الذي تقوّس ظهره لموتي، ووالدتي التي شدَّتْ وسطها بالمنديل لمفارقتي، وقد نشرتْ شعرها، وضربتْ صدرها، وتقوّس ظهرها، وابيضَّتْ عيناها لفقدي.

فإذا صُلّي على جنازته، ورُفعَ من المصلّى، ورجع بعض أصدقائه، يقول: يا إخوتاه، كنتُ أعلمُ أنَّ الميّت ينساه الأحياء، لكن لا بهذه السرعة، رجعتم قبل أن تدفنوني، ونسيتموني بهذه السرعة، وجسمي بعد بين أظهركم.

فإذا وُضعَ في لحده، وَوُضعَ عليه التراب، ينادي: واورثتاه، تركتُ لكم الكثير، فلا تنسوني، تصدَّقوا عنّي على فقرائكم، ولو بكسرة خبز محترق،

وعلّمتكم القرآن والأدب، فلا تنسوني من الدعاء، فإنّي صرت محتاجاً، كفقرائكم على أبوابكم، ومحتاجاً إلى دعائكم، كصاحب حاجتكم إلى ساداتكم[1].

وممّا يدلّ على بقاء حياتهم في قبورهم، ما دلَّ على أنَّ الميّت بعدما يُسْأل، يُفتح له بابٌ إلى الجنّة، إن كان من أهل الخير، أو إلى النار إنْ كان من أهل الشرّ، وبقاء اللذّة والألم ظاهرٌ في بقاء أثر الحياة.

وعن عبدالله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: إذا مات أحدكم، عرض عليه مقعده بالغدوة والعشيّ، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

وعن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ: إنَّ الميّتَ يُسْأل في قبره عن النبيّ ﷺ، فإن أجاب بالحقّ قيل له: نَمْ نومةَ العروس، وإلاّ فُتِحَ له بابٌ إلى قبره يكون معذّباً إلى يوم القيامة[2].

وعن البراء بن عازب، عن النبيّ ﷺ، قال: يأتيه ملكان يجلسانه، ثمّ ذكر أنّهما يسألانه، فإن أجاب بحقّ، فُتح له بابٌ إلى الجنّة، فيأتيه من روحها وطيبها، وإلاّ يُفتحُ له بابٌ إلى النار، فيأتيه من حرِّها وَسَمُومِها. إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة الدالّة على أنّهم في قبورهم يتلذّذون ويتألّمون، وهذا من توابع الحياة ولوازمها.

وكيف كان، فقد بلغت هذه الأخبار فوق التواتر، وبعد عموم قدرة الفاعل المختار، لا بُعدَ ولا غرابة في مداليلها.

وما دلَّ من الكتاب والسنّة على أنَّ الإحياء يكون عند النفخ في الصُور، فقد بيّنا أنَّ المراد: إمَّا الحياة على النحو المعهود من تلك الأشخاص الخاصّة بعينها، أو يُرادُ أنّهُ يوم البروز والظهور على عيون الأشهاد.

---

(١) تُراجع هذه الأحاديث في الجزء الخامس عشر من كنز العمّال في الباب الأوّل (في ذكر الموت وفضائله)، حديث ٤٢٠٩٤ حتى حديث ٤٣٠١١ (من ص ٥٤٨ حتى ص ٧٥٨).

(٢) سنن الترمذي (كتاب الجنائز)، باب ٧٠ ـ ما جاء في عذاب القبر ـ حديث ١٠٧١.

وإذا تبيَّنَ بهذه الأخبار المتواترة، أنّهم يسمعون ويعقلون ويعرفون مَنْ يُخاطبُهم، صحَّ لنا أنْ نخاطبهم مخاطبة الأحياء فنلتمس دعاءهم، ونقسم عليهم بالأقسام في أنْ يكونوا شفعاء لنا في الدنيا وفي يوم القيامة؛ لأنَّ الشفاعة أظهر فرديها أنّها دعاءٌ خاص، واختصاص الخواص بها باعتبار قبولها.

فلو قال قائلٌ لنبيّ، أو وصيّ، أو عبدٍ صالح: اشفع لي، أو ادعُ لي، أو أغثني، أو أعنِّي (أي بدعائك)، أو قال: اقض لي حاجتي، أو ارزقني مالاً، وادفع الضرر عنّي، ونحو ذلك، ولا يريد سوى التوسّط بالدعاء وسؤال الله، لم يكن عليه شيء.

وقد وقع كثيرٌ من ذلك في كلام الصحابة والتابعين، بل ربَّما كان هذا التعبير أولى، لدلالته على قرب منزلة العبد عند مولاه واحترامه، فتكون شهادة له بنبوّته، وقرب منزلته.

وليس على مَنْ قال للعبد المقرّب، أو إلى الخادم المقرّب: اقضِ حاجتي، (بمعنى: اسعَ لي في قضائها عند مولاك)، بأسٌ، بل هو أنسب في التواضع إلى المولى.

وأمّا مَنْ قال مثل ذلك معتقداً أنَّ الأنبياء والأوصياء بأيديهم الأمر أصالةً، يفعلون ما يشاؤون، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

وإنّي قد طفتُ بشطرٍ من بلاد المسلمين، وخالطتُ كثيراً منهم منذ سنين، فلم أرَ أحداً يعتقد أنَّ في الوجود فاعلاً مختاراً سوى الفاعل المختار العزيز الجبّار تبارك وتعالى، وذلك مراد العوام في خطاباتهم، فضلاً عن العلماء الأعلام، إلاَّ أنّهم لا يمكنهم كشف الحال، وإن كان مقصدهم ذلك على الإجمال. نسأل الله وإيّاكم طريق السداد والنجاة من أهوال يوم المعاد.

الباب الثاني
في الزيارات

وفيه فصلان:

الفصل الأول
في زيارة قبر النبي ﷺ

روى الدارقطني في «السنن» وغيرها، والبيهقي، وغيرهما من طريق موسى بن هلال العبدي، عن عبدالله العمري، عن نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: مَن زار قبري وجبتْ له شفاعتي.

وعن نافع، عن سالم، عن ابن عمر مرفوعاً، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: مَنْ جاءني زائراً ليس له حاجة إلاّ زيارتي، كان حقّاً عليَّ أنْ أكون له شفيعاً يوم القيامة.

وعن ليث، عن مجاهد، عن ابن عمر مرفوعاً عن النبيّ ﷺ: مَنْ حَجَّ وزار قبري بعد وفاتي، كان كمَن زارني في حياتي.

وروي عن عائشة أيضاً، وعن نافع، عن ابن عمر، عن النبيّ، قال: مَنْ زارني كنتُ له شهيداً أو شفيعاً.

وعن نافع، عن ابن عمر، عن النبيّ ﷺ، قال: مَنْ حجَّ فلم يزرني، فقد جفاني[1].

وعن أبي هريرة مرفوعاً، عن النبيّ ﷺ، قال: مَنْ زارني بعد موتي، فكأنّما زارني حيّاً[2].

---

(١) تُراجع هذه الأحاديث في سنن البيهقي، ج٥ (كتاب الحجّ)، باب زيارة قبر النبيّ ﷺ.
(٢) كنز العمّال، المجلد الخامس (باب زيارة قبر النبيّ)، حديث ١٢٣٨٢.

وعن أنس مرفوعاً، عن النبيّ ﷺ، قال: مَنْ زارني في المدينة، كنتُ له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة[1].

وعن أنس مرفوعاً، عن النبيّ ﷺ، قال: مَنْ زارني ميّتاً كمَنْ زارني حيّاً، ومَنْ زار قبري وجبتْ له شفاعتي يوم القيامة.

وعن ابن عبّاس، عن النبيّ ﷺ قال: مَنْ زارني في مماتي، كان كمن زارني في حياتي، ومَنْ لم يزرني فقد جفاني.

وعن عليّ عليه السلام مرفوعاً، عن النبيّ ﷺ: مَنْ زار قبري بعد مماتي، فكأنّما زارني في حياتي، ومَنْ لم يزرني فقد جفاني.

وعن ابن عبّاس، عن النبيّ ﷺ، قال: مَنْ حجَّ وقصدني في مسجدي، كانت له حجّتان مبرورتان.

وروى ابن عساكر، عن عليّ عليه السلام، قال: مَنْ زار قبر رسول الله ﷺ كان في جوار رسول الله ﷺ.

وعن بكر بن عبدالله مرفوعاً، عن النبيّ ﷺ، قال: مَنْ أتى المدينة زائراً لي، وجبتْ له الجنّة.

وعن كعب الأحبار أنَّ عمر لمَّا فتحَ بيت المقدس، قال لي: هل لك أن تسير معي إلى المدينة نزور قبر النبيّ ﷺ؟ فذهبتُ معه، فلمَّا دخل بدأ بالمسجد، وسلَّمَ على النبيّ ﷺ.

وفي «الموطّأ» عن ابن عمر: كان يقف عند قبر النبيّ ﷺ، فيُسَلِّم عليه، وعلى أبي بكر، وعمر.

وسئل نافع: هل كان ابن عمر يسلّم على قبر النبيّ ﷺ؟! فقال: رأيتُهُ مائة مرّة أو أكثر يُسلّم على النبيّ ﷺ، وعلى أبي بكر، وعمر.

---

(١) كنز العمّال، المجلّد ١٥ (باب زيارة قبر النبيّ ﷺ)، حديث ٤٢٥٨٤.

وعن ابن عمر: إنَّ سُنَّةَ السلام منْ قبل القبلة.

ونقل الدارقطني، عن عليّ عليه السلام أنّه دخل المسجد فسلّم على القبر.
ورُويَ عن آل الخطّاب، وعن بعض الحُفَّاظ زيارة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

وكيف كان، فالروايات في استحباب زيارته وشفاعته لزوّاره، داخلةٌ في قسم المتواتر، وعمل الصحابة، والتابعين، وأهل البيت أجمعين على ذلك.

قال عياض: زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سُنَّة، أجمعَ عليها المسلمون.
وروى غيرُهُ إجماعَ المسلمين قولاً وفعلاً على استحباب زيارته، وصريحٌ بعضُها[1] أنّ شدَّ الرحال إليها لا مانع منه.

وفي ما دلّ على استحباب التعظيم، وأنَّ حرمة الأموات كحرمة الأحياء، كفاية.

---

(١) في النسخة المطبوعة: «وصرَّح بعضهم».

الفصل الثاني
في زيارة باقي القبور

قد مرَّ في الأخبار الماضية زيارة الصحابة قبري الشيخين.

وروى بريدة عن النبيّ ﷺ: إنّي نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها[1].

ولعلّ السرّ ـ والله أعلم ـ أنّه في مبدأ الإسلام كانت زيارة القبور وتذكار الموتى والقتلى، باعثاً على الجبن عن الجهاد، حتّى إذا قوي الإسلام أمرهم بها. ونحو ذلك في خبر آخر.

وعن أبي هريرة، أنّ النبيّ ﷺ زار قبر أُمّه، ولم يستغفر لها، قال: أُمرتُ بالزيارة، ونهيتُ عن الاستغفار، فزوروا القبور، فإنّها تذكّر الموت[2].

وعن بريدة أنّ النبيّ ﷺ كان إذا خرج إلى المقابر، قال: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين»، رواه مسلم[3].

وعن عائشة أنّ النبيّ ﷺ كان يخرج إلى البقيع آخر الليل، فيقول: السلام عليكم. . . (الخبر)، رواه مسلم[4].

وكيف كان، فالأخبار متظافرة على زيارة القبور، ولا حاجة لنقلِ جميعها. وفي ما ورد من أنَّ حرمة المسلم ميتاً كحرمته حيّاً دلالة على ذلك، وزيارة النبيّ ﷺ، والصحابة لقبور الشهداء أوضح من الشمس في رابعة النهار.

---

(١) صحيح مسلم، المجلّد الثاني (كتاب الجنائز)، باب ٣٦، حديث ١٠٦؛ سنن ابن ماجة (باب ما جاء في زيارة القبور)، باب ٤٧، حديث ١٥٧١.

(٢) صحيح مسلم، باب استئذان النبيّ ﷺ ربّه في زيارة قبر أمّه، حديث ١٠٨.

(٣) المصدر نفسه، باب ما يقال عند دخول القبور، حديث ١٠٤.

(٤) المصدر نفسه، حديث ١٠٢.

الباب الثالث

في التبرّك بالقبور ونحوها

اختلف العلماء من أهل السنّة والجماعة في جواز التبرّك بالقبور؛ فمنهم: من أجازه على كراهة:

قال النووي: لا يجوز أنْ يُطافَ بقبر النبيّ ﷺ، ويكره إلصاق البطن والظهر به. قال: ويكره مسّهُ باليد وتقبيله، بل الأدب أن يبعد عنه، كما لو حضر في حياته.

وكلامه ظاهرٌ في أنَّ المسّ أبعد من التعظيم، وشبهة العبوديّة.

وذكر ابن عساكر في «تُحَفِهِ»، عن ابن عمر أنّه كان يكرهُ مسَّ قبر النبيّ ﷺ.

ويظهر من بعضهم ندبه واستحبابه:

نقل عبدالله بن أحمد بن حنبل في كتاب «العلل والسؤالات»، قال: سألتُ أبي عن الرجل يمسّ منبر رسول الله ﷺ، يتبرّك بمسّه وتقبيله، ويفعل بالقبر ذلك رجاء ثواب الله تعالى، فقال: لا بأس به.

وعن إسماعيل أنّ ابن المنكدر[1] يصيبه الصمّات، فكان يقوم ويضع خدَّهُ على قبر النبيّ ﷺ، فعُوتبَ في ذلك، فقال: يستشفى بقبر النبيّ ﷺ. والاستشفاء أعظم من التبرّك.

ونقل عن ابن أبي الضيف، والمحبّ الطبري، جواز تقبيل قبور الصالحين، وظاهره الندب.

---

(١) محمّد بن المنكدر القرشي التيمي، أحد الأئمّة التابعين، تُوفّي سنة ١٣٠هـ/٧٤٨م.

وفي رواية عن ابن حنبل: إني لا أعرف التمسّح بالقبر، أمّا المنبر فنعم، لما روي أنّ ابن عمر كان يفعله.

ونقل عن مالك التبرّك بالمنبر.

وروي عن يحيى بن سعيد شيخ مالك أنّه حينما أراد الخروج إلى العراق، جاء إلى المنبر، وتمسَّح به.

وقال السبكي: مَنْعُ التمسّح بالقبر ليس ممّا قام الإجماع عليه، واستدلّ بما رواه يحيى بن الحسن، عن عمر بن خالد، عن أبي نباته، عن كُثير بن يزيد، عن المطلب بن عبدالله، قال: أقبل مروان بن الحكم، فإذا رجلٌ ملتزم القبر، فأخذ مروان برقبته وقال: ما تصنع؟! فقال: إنّي لم آتِ الحجر ولا اللبن، إنّما جئتُ رسول الله ﷺ. وذكر رواية أحمد، قال: وكان الرجل أبا أيّوب الأنصاري.

ونقلَ هذه الرواية أحمد، وزاد فيها: إنّه قال: سمعتُ رسول الله يقول: لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا عليه إذا وليه غير أهله.

وعن أبي الدرداء أنّ بلالاً رأى النبيّ ﷺ في المنام، فقال له: ما هذه الجفوة يا بلال، أَمَا لَكَ أن تزورني؟! فانتبه حزيناً خائفاً، فركب راحلته، وقصد المدينة، فأتى قبر النبيّ ﷺ فجعل يبكي عنده، ويمرِّغ وجهه عليه، إلى أنْ ذكر حضور الحسنين وبكاء أهل المدينة، وأذان بلال، قال: فما رُئي أكثر باكياً ولا باكية بعد رسول الله ﷺ من ذلك اليوم.

وذكر ابن جملة أنّ بلالاً وضع خدّيه على القبر، وأنّ ابن عمر كان يضع يده اليمنى عليه.

ونُقلَ عن مالك، والزعفراني تحريمه، وهو الظاهر من كلام أنس بن مالك؛ حيث قال: ما كنّا نعرفه.

وكيف كان، كيف يدَّعي المسّ والتبرّك عبادة مع أنّهما أبعد عن التعظيم؟ وقضيّة الذمّ على عبادة يعقوق ويغوث ونسر، ليس من جهة التبرّك، كما نصَّ عليه

المُفَسّرون[1]؛ حيث قالوا: تبرّكت الآباء فانتهى الأمر إلى عبادة الأبناء، فوقع الذمّ على الأبناء.

وتحقيق الحال، أنَّ التقبيل على أنحاء:

منها: تقبيل المحبّة؛ لأنَّ مَنْ أحبَّ شخصاً أحبَّ مكانه، وثيابه، وداره، ومزاره، فلا يكون تقبيل الأعتاب، والجدران، والأبواب إلاَّ كتقبيل بعض ثياب الأحباب، فهو من قبيل قوله: -

أمرُّ على الديارِ ديارِ ليلى ... أُقبّلُ ذا الجدارَ وذا الجدارا
وما حُبُّ الديار شغفنَ قلبي ... ولكنْ حُبُّ مَنْ سكنَ الديارا

وسُئِلَ رسول الله ﷺ عن تقبيل اليد، فنهى عن ذلك، إلاَّ في تقبيل يد الزوجة للشهوة، ويد الولد للمحبّة.

وعن عليّ عليه السلام أنّه قال: قال رسول الله ﷺ بعد فتح خيبر: لولا أنْ تقول فيك طوائف من أمّتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم، لقلتُ اليوم فيك مقالاً، لا تمرّ على ملأ من المسلمين إلاَّ أخذوا من تراب رجليك، وفضل طهورك يستشفون به، ولكن حسبك أنّكَ منّي وأنا منك[2].

وروي عن عليّ عليه السلام أنّه قال: قدم علينا أعرابيٌّ بعد دفن النبيّ ﷺ بثلاثة أيّام، فرمى بنفسه على القبر، وَحَثَا من ترابه على رأسه.

وعلى كلّ حال، فالذي يظهر بعد تحقيق النظر أنَّ التقبيل للمحبّة من قبيل تقبيل الوالد لولده[3]، والأرحام بعضهم لبعض، فلو قبَّلَ بعضهم جدران بعض، أو ثياب بعض، أو مكان بعض، حبّاً وإرادة، لا تعظيماً ولا عبادةً، فليس فيه بأس.

---

(1) في تفسير الآية (٢٣) من سورة نوح.
(2) نهج البلاغة، ج٢، ص ٤٤٩.
(3) في النسخة المطبوعة: «الوالدة لولدها».

وأمّا قصد التعظيم والإكرام، فليس فيه خروجٌ عن ملّة الإسلام، قصارى ما هناك أنّه عدّهُ بعض العلماء من الآثام، فليس على الفاعل عن دليل في الردّ عليه من سبيل. وأمّا من فعل مشرّعاً فهو عاصٍ لربّه، حتّى يتوب عن ذنبه.

ولقد نقل عن بعض أمراء دار السلام (بغداد) أنّه وشى بعض الوشاة على جماعة أنّهم يُقَبِّلُون أعتاب الأولياء، فقال: سبحان الله، في كلّ يوم تقبّلون جلد الميتة (يعني الفروة التي هو لابسها)، ولا تقبِّلُون أعتاب أبواب الأولياء.

وعلى أيّ تقدير، فالغرض إنّما هو نفي التكفير. ونسبة فعل هؤلاء إلى فعل عبدة الأصنام خروجٌ عن الإنصاف في هذا المقام؛ لأنَّ الذاهبين إلى الجواز منّا إنّما أخذوا عن الدليل، لا لمجرّد الاختراع والابتداع، فإن اشتبهوا عُذِروا وأُجِروا.

فمن قبَّلَ الحجرَ الأسود، والركنَ اليمانيَّ، أو باقي الأركان، أو مسَّها، أو لزم المستجار، فقد تبرّك بتلك الأحجار؛ لأنّها بأمرٍ من العزيز الجبّار، ولو أخطأ الأمر، كان مثاباً.

ومن طاف بين المروتين، عملاً بالكتاب وسنّة سيّد الثقلين، لم يكن عليه مؤاخذة في البين.

وطوائف المسلمين بأجمعهم لا يتبرّك منهم أحدٌ بقبر أو غيره، إلاّ بزعم أنّه مأمورٌ من الله، ومَنْ تبرَّكَ قاصداً للعبادة، فهو خارجٌ عن ربقة المسلمين.

ومن البيّن المعلوم أنّه لو أمر المولى عبده بالتبرّك بثياب عبده المقرّب، أو مكانه، أو قبره، فامتثل، كان مطيعاً لمولاه، لا للعبد الذي قرَّبه وأدناه.

فأقسمتُ عليك بمَنْ جمعَ بيننا في كلمة الإسلام، وألَّفَ بين قلوبنا في هذه الأيّام، أنْ تنفرد عن الأصحاب إذا ورد عليك الكتاب، وترى نفسك كأنَّك الآن خلقت من تراب، وتبذل الجهد في تمييز الخطأ من الصواب، فإنَّه ـ والله ـ[1] لا حاجة بنا إلاّ إليه، ولا اعتماد لنا إلاّ عليه.

---

(١) في النسخة المطبوعة: «فأنا وأنتَ».

وليس لنا مع الأنبياء والأولياء قرابة نسب، ولا لهم علينا ما نخاف منه الطلب، وإنّما عظّمناهم لأمر الله، وأخذنا بأقوالهم عملاً بقول رسول الله، وما أُبرِّئ نفسي، إنَّ النفس لأمّارةٌ بالسوء إلاّ ما رحم ربّي.

وكشف الحال على وجه يدفع ما قيل أو يقال: إنَّ التواضع والتبرّك والإكرام والاحترام لما هو مُعظَّم عند الملك العلاّم من تعظيم الله، كما أنّ قرآنه، وبيته، ومساجده لانتسابها إليه، احترامٌ له تبارك وتعالى. فمن عظَّمَ عيسى ومريم وعزيراً لعبوديّتهم، وقرب منزلتهم، فهو معظّم لله.

كما أنّ من عظّم بيت السلطان وعبيده وغلمانه وأتباعه من حيث التبعيّة، يكون معظّماً للسلطان. وأمّا من وجدها قابلة للتعظيم، وأهلاً له من حيث ذاتُها لا لأجل العبوديّة والتابعيّة، وإنْ كان غرضُهُ التقريب زلفى، إنّما يكون معظّماً لها، لا للسلطان.

وإنّي منذ ثلاثين حجّة أنظرُ في حال طوائف المسلمين، محقّيهم ومبطليهم، فلم أجد أحداً يعظّم كتاباً، أو نبيّاً، أو مكاناً، أو عبداً صالحاً من غير قصد قربة من الله، أو انتسابه إليه، فقد ظهر أنّ هذا كلّه من باب طاعة الله وتعظيمه.

وأمّا عبدة الأصنام والعباد الصالحين، فإنّما أرادوا عبادتهم حقّ العبادة، كأنْ يُصلّوا لهم، ويصوموا، ويكون ذلك لاستحقاقهم بربوبيّتهم في أنفسهم، أو للتقريب زلفى، فهي عبادة حقيقيّة على الوجهين.

وعلى كلٍّ من الاحتمالين على أنّي ذكرتُ مكرّراً أنّهم عاندوا الرسل، وكذّبوهم، واستهزأوا بهم، وقالوا أيضاً: لا طاقة لنا بعبادة الله، وإنّما نعبد الأصنام لأنَّ عبادتهم مقدورة لنا، وهم يقرّبونا إلى الله زلفى، ولقد نقلتُ روايةً مشتملةً على ذلك المعنى في مقام آخر. فالفرق بين الأمرين أوضح ممّا يُرى رأي العين.

فبحقّ مَنْ شقَّ لك السمع والبصر، وسلَّطكَ على طوائف من الأعراب والحضر، أنْ تُوجِّهَ ذهنكَ الوقّاد، وفكرَك النقّاد، صافياً عن ملاحظة العصبيّة

والعنـاد، وتجعـل منـاظرتنـا كأنّهـا حين حلولنا في المقابر، وانصرافنا عن مرارة الدنيا، طالبين للنعيم الفاخر، وحضورنا يوم فصل القضاء بين يدي جبّار الأرض والسماء، وكأنَّ الملائكة بيننا شهود، وقد حضرنا في اليوم الموعود، وقد فارقنا الأموال والأولاد، وانقطعنا إلى ربِّ العباد.

اللّهُمَّ اجمعْ بيننا بالحقّ، واعصمنا عن الميل إلى رضا الخَلْق.

الباب الرابع

في بناء قبور الأنبياء والأولياء وتعميرها وتعلية بنائها وتشييد أركانها

لا يخفى على مَنْ أمعنَ النظر، وتتبَّع الآثار والسير، أنَّ الأزمنة مختلفة الأحوال بالنسبة إلى جميع الأقوال والأفعال، فرُبَّ شيءٍ كان في قديم الزمان في أعلى مراتب الاستحسان، فانعكس وصار أدنى ما يكون أو كان.

وحيث إنَّ الشارع حكيم، وبالعباد رحيم، يراعي أحوالهم، ففي مبدأ الإسلام لمّا كان المعاش ضيّقاً، والأسعار متصاعدة في المآكل والملابس، حافظ النبيّ ﷺ، والصحابة في أيّامهم على المآكل الجشبة، والملابس الخشنة أو الخَلِقَة، لئلاّ تنكسر قلوب الفقراء، ولتطيب نفوسهم، فإنّهم إذا رأوا سيّد الجميع لابساً رثَّ اللباس، وآكلاً أدنى المأكول، استقرّتْ نفوسهم، واطمأنّتْ قلوبهم، وارتفعت كدورتهم.

ثمّ لمّا توسّعت أحوال الناس، وقوي الإسلام، ورخصت الأسعار، استعمل الأكثر من الخلفاء أحسن الملبوس، وأكلوا أطيب المأكول، وهذا التعليل مستفاد من الأخبار أيضاً.

وكذلك نقول في أمر بناء المساجد والحَضْرَات، فإنّهم كانوا لا يرفعون البناء، ولا يزينون الدور، لما بهم من القصور، فإذا كانت بيوت الله، وبيوت أنبيائه لم يرفع بناؤها طابت نفوس الفقراء، واطمأنّتْ قلوبهم.

وأمّا في مثل هذه الأيّام ونحوها؛ حيث ارتفع بناءُ الدور، فلا وجه لجعل بيوت الله أخفض منها، ومَنْ يرضى بتعلية بيوت الخلق على بيوت الخالق؟ مع أنَّ في تعليتها تعظيماً لشعائر الله، وهي البيوت التي أذن الله أن ترفع ويُذْكر فيها اسمه.

والقباب منها؛ لأنّها جُعلتْ للعبادة، وليس في بناء القباب تجديد قبر؛ لأنّ القبر باقٍ على حاله لم يجدّد، وإنّما وضع أساس القبّة بعيداً عنه، ليكون فيها علامة على المزار الذي نَدَب إلى زيارته العزيزُ الجبّار، ولتكون ظلالاً للزائرين، فلا تدخل في باب التجديد أصلاً، وكذا صندوق الخشب، فإنّه أجنبيٌّ عن القبر لا دخل له به.

وعلى كُلِّ حال، فأصل وضع البناء لهذه المقاصد الجليلة ليس فيه بأس أصلاً، ولو تُركت العلامات ما أمكن التوصّل إلى زيارة أكثر الأموات لاندراس آثارهم، فوُضِعَ هذا للتمكّن من إدراك فضيلة زيارة القبور، وكلّما كان الشاهد أحكم، كانت دلالتُهُ على المَشْعَر أدوم.

وأمّا قضيّة الزينة، فقد رُوِيَ عن عليّ عليه السلام أنّ بعض الصحابة أشاروا على عمر أنْ يأخذ زينة الكعبة ليقوّي بها جيوش المسلمين، فقال له عليّ عليه السلام: إنّ الأموال قسّمها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على الفقراء، وكانت في ذلك اليوم الحليّ موجودة ولم يقسّمها، فلا تخالف وضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: «لولاك افتضحنا»، وأبقى الحليّ على حالها.

والأصل في بناء القباب وتعميرها، ما رواه البناني (واعظ أهل الحجاز) عن جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن جدّه الحسين، عن أبيه عليّ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له: والله لتقتلنّ في أرض العراق، وتدفن بها. فقلت: يا رسول الله، ما لمن زار قبورنا وعمّرها وتعاهدها؟ فقال لي: يا أبا الحسن، إنّ الله جعل قبرك وقبر ولديك بقاعاً من بقاع الجنّة، وإنّ الله جعل قلوب نجباء من خلقه، وصفوة من عباده تحنُّ إليكم، ويعمرون قبوركم، ويكثرون زيارتها، تقرّباً إلى الله تعالى، ومودّةً منهم لرسوله. يا عليّ، مَنْ عمَّرَ قبوركم وتعاهدها، فكأنّما أعان سليمان بن داود على بناء بيت المقدس، ومن زار قبوركم عدل ذلك ثواب سبعين حجّة بعد حجّة الإسلام، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه.

ونُقِلَ نحو ذلك أيضاً في حديثين معتبرين: نقل أحدهما الوزير السعيد بسند، وثانيهما بسندٍ آخر غير ذلك السند، ورواه أيضاً محمّد بن عليّ بن الفضل.

فبعد دلالة هذه الأخبار على تعمير القباب، واستمرار طريقة الأصحاب، مع أنّها داخلة في المواضع المعدّة للطاعات، كالمساجد، والمدارس، والرباطات، مع أنَّ فيها تعظيماً لشعائر الإسلام، وإرغاماً لمنكري دين النبيّ عليه الصلاة والسلام.

وبعد أن بيّنا أنَّ الحكم والمصالح تختلف باختلاف الأوقات، وذكرنا اعتضاد ذلك بالروايات، لم يبق بحث من جميع الجهات.

وعلى تقدير ثبوت الخطأ في هذا الباب، لا يلزم على المخطئ تكفير ولا عصيان، بل ربّما يثاب؛ لأنّ الخالي من التقصير، وإن اتّصف بالقصور، معذور كلّ العذر، بل هو مأجور.

فيا أخي، لا تعارض المسلمين في ما هم عليه إن لم تركن إلى ما ركنوا إليه، واحملهم على المحامل الحسان، فإنّا هكذا أمرنا بحمل الإخوان. وفّقنا الله وإيّاكم، وهدانا وهداكم، والله وليّ التوفيق.

وحيث انتهى ما أردنا ذكره، وأحببنا رسمه وسطره، على غاية من السرعة والاستعجال، وعدم التمكّن لاستيفاء كثير ممّا يناسب هذا المجال، والاستقصاء لما في كتب الأخبار والاستدلال، أحببنا أن نضيف إلى ذلك:

كشفُ الجواب
عمَّا تَضَمَّنَهُ ذلك الكتاب

من الإنكار على أكثر المسلمين في جميع الأقطار[1].

أقول: إنْ أُريد بدعوة غير الله والاستغاثة إسناد الأمر إلى المخلوق على أنّه الفاعل المختار الذي تنتهي إليه المنافع والمضار، فذلك من أقوال الكفّار. والمسلمون بجملتهم براءٌ من هذه المقالة ومن قائلها، وما أظنّ أنّ أحداً ممّن في بلاد المسلمين يرى هذا الرأي، ولا سمعناه من أحد إلى يومنا هذا.

وإن أُريد أنَّ المدعوّ والمستغاث به له اختيار وتصرّفٌ في أمر الله تعالى، فيحكم على الله، فهذا أشدّ كفراً من الأوّل.

وإنْ أُريدَ دعاؤه والاستغاثة به للدعاء والشفاعة، أو من التصرّف في العبارة، كما تقول: يا رحمة الله، ويا بيت الله، ويا عبد الله، ولا تريد إلاّ نداء الله ودعاءه، واستغاثته، فهذا من أعظم الطاعات، وفيه محافظة على الآداب من كلّ الجهات.

وكون الدعاء عبادة إنّما يجري في قسم منه؛ وهو الطلب من الخالق المدبّر الذي جلَّ شأنُهُ عن الأشباه والنظائر. ولو جعلت كلّ دعاء عبادة، للزم أنّ دعاء زيد لإصلاح بعض الأمور، أو دفع بعض المحذور، وطلب الأفعال، كلّها من قبيل الكفر.

فالسُؤال، والأزواج، والعبيد، والخُدَّام في طلب المآكل والملابس مربوبون، ومقابلوهم أرباب، فيكون ذلك مكفراً، وإن أقررت بالتخصيص خصَّصناه بما ذكرناه.

---

(1) ورد في النسخة المطبوعة: «والله الملهم للسداد والصواب، فنقول: أمّا ما ذكرت من الإنكار على كثير من الناس الاستغاثة بغير الله ودعوة غير الله».

وبيانُهُ: إنَّ لفظ «الدعاء» لا يُرادُ به المعنى اللغوي، وإلاَّ لكفر جميع الخلق، فالمراد دعاء العبوديّة والمربوبيّة، كمن دعا الأصنام أو الصالحين، مع اعتقاد ربوبيّتهم، وقصدَ عبوديّتهم، مكتفين بها عن عبادة الله، أو مشركين أولئك مع الله لقصد وصول النفع إليهم منهم، وليقربوا إلى الله زُلفى.

وأمّا ما ذكرتَهُ من النذر لغير الله تعالى والذبح لغير الله، وهذا أيضاً إنْ أُريدَ أنّهم يذبحون مُهِلّينَ باسم غير الله، أو ينذرون تعبّداً لغير الله. فذلك لم يصدر من أحد من المسلمين، وكلّ من فعل ذلك، فهم منه براء، سواء كان ذلك عبادةً لغير الله، أو كان لأجل أن يقرّب إلى الله.

وأمّا لو كان من باب إهداء ثواب المذبوح والمنحور والمنذور إلى أولياء الله وعباده الصالحين، فهو من أعظم الطاعات، وأفضل القربات، وقد بيّنا ذلك في بعض المقامات.

قولك: إنّ ذلك حقيقة دين المشركين أعداء رسل ربّ العالمين، كقوم نوح وعاد وثمود، وقوم إبراهيم، فأخبر الله عنهم بذلك في كتابه المبين؛ حيث يقول، وهو أصدق القائلين: **﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾** [يونس: ١٨]، فأخبر الله أنّهم ما عبدوهم إلاّ ليقرّبوهم إلى الله زلفى، وقال سبحانه وتعالى: **﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلَى اللهِ زُلْفَى﴾** [الزمر: ٣].

فتأمّل كيف أخبر الله سبحانه عنهم أنّهم ما قصدوا بعبادتهم غير الله إلاَّ التقرّب إلى الله والشفاعة عنده، وإلاَّ فهم مُقِرُّون أنَّ الله هو المُدبِّر لأمر هذا العالم العلوي والسفلي، كما أخبر الله عنهم أنّهم أقرّوا بذلك، قال الله تعالى: **﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾** [يونس: ٣١].

أقول: إنَّ لكُلِّ حقّ حقيقة، وعلى كلّ صواب نوراً، إنَّ عبدة غير الله قد اتّخذوا آلهة دون الله تعالى أو مع الله، وجعلوا لهم أنداداً وأمثالاً لله، قال الله تعالى: **﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً﴾** [المائدة: ٧٦]،

وقال: ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لِلّهِ أَنْدَاداً﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال: ﴿وَجَعَلُوا لِلّهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال: ﴿يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

ثمّ المذمّة لم تكن على اعتقاد الشفاعة، أو التقرّب زلفى، بل على العبادة بهذا القصد، والمراد بالعبادة أعمال خاصّة كما بيّناه.

وقولك: «إنّ ذلك حقيقة دين المشركين، كقوم نوح وعاد وثمود»، كيف ذلك؟ وقد أخبرَ الله عنهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ إلى قوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ [إبراهيم: ٩]، وأخبر عن قوم عاد أنّهم قالوا لهود: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣]، وعن قوم صالح أنّهم قالوا له: ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٦٢]، وعن قوم شعيب أنّهم قالوا له: ﴿أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٨٧]، وعن قوم إبراهيم أنّهم كذّبوا الرسل.

فهؤلاء الطوائف بصريح القرآن كذّبوا الرسل، وردّوا قولهم، وعاندوهم، فلو كانوا مقرّين لكانوا كفّاراً لكفر العناد ككفر إبليس.

فيا أخي، أقسمتُ عليك بمَنْ خَلَقَنا من تراب، ثمّ أودعنا الأصلاب أن تترك الجدال، وتتأمّل في حقيقة الحال، كيف تُشَبِّهُ أعمال المسلمين بأعمال عَبَدة الأصنام وغيرها مع أنّهم أنكروا نبوّة الأنبياء، وردُّوا عليهم بعد أن أمروهم، ولم يسمعوا لهم قولاً، ولا قبلوا لهم فعلاً.

ثمّ إنّهم عبدوا طواغيتهم بالعبادة الحقيقيّة، لاعتقاد أنَّ لهم تصرّفاً في الأكوان، أو في إرضاء الملك الديّان، وإلاّ لم يذمّهم الرحمـٰن، ولا أنكر عليهم كلّ فعل كان.

ثمّ تعلّلوا بأنّا لا نقدر على عبادة الله سبحانه، فنعبدهم ونكتفي بعبادتهم وهم يقرّبونا، كما أوردنا بذلك بعض الروايات في بعض المقامات.

وعلى كلِّ حال، لا يتأمّل مسلم في أنَّ العبادة الحقيقيّة من الصلاة والصيام وغيرهما لا تكون لغير الله، فإن كان التصدّق عن الأولياء والذبح لهم والنذر لهم عبادة، فنحن عبيد آبائنا وأمّهاتنا وأمواتنا الذين نتصدّق عنهم، أو ننذر لهم، ونذبح لهم.

وإن كان طلب الدعاء منهم وندبتهم على الدعاء والشفاعة كفراً، فعلى الإسلام السلام، فإنّه ليس في الوجود أحدٌ لا يلتمس الدعاء من إخوانه، أو يستغيث بهم في طلب نجاته، وإنّ دعاء المؤمن للمؤمن أسرع للإجابة لأنّه دعاء بلسان لم يعصِ به.

فيا أخي، المقاصد متفاوتة، وإنّما الأعمال بالنيّات، ولكُلِّ امرئٍ ما نوى[1]، فرُبَّ كلمة ظاهرها الإسلام، تصير بالنيّة كلمة كفر، وبالعكس.

وأمّا قولك: فإنَّ الذي يُفعلُ عندنا في مشهد عليّ ـ رضي الله عنه ـ من دعوة، واستغاثة، ورجاء، وخوف، وخشية. إنّه ليس بعبادة، فإنّهم ما قصدوا بدعوتهم عليّاً وغيره إلاّ ليشفع لهم عند الله.

فإن قلت: أُولئك يدعون الأصنام، ونحن لا ندعو إلاّ الصالحين.

قلنا: وكذلك المشركون منهم يدعون الصالحين ويعبدونهم مع الله، كعيسى ومريم والملائكة.

فإنْ قلتم: إنَّ الدعوة لا تُسَمَّى عبادة.

قلنا: بل هي عبادة وأيّ عبادة، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: الدعاء هو العبادة. ويلي قوله تعالى: ﴿أدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

---

(١) البخاري (بدء الوحي)، باب ١؛ صحيح مسلم (كتاب الامارة)، باب ١٥٥؛ النسائي (كتاب الطهارة)، باب ٥٩؛ ابن ماجة (كتاب الزهد)، باب ٢٦.

وأصل دين الإسلام هو إخلاص العبادة بجميع أنواعها من الذبح، والدعوة، والنذر، والتوكّل، والخشية، والرغبة، والإنابة، ولا يقبل الله من الأعمال إلاّ ما اجتمع فيه شرطان:

الأوّل: ألاّ يعبد إلاّ الله وحده.

الثاني: ألاّ يعبد إلاّ بما شرع على لسان رسوله، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١١٠].

أقول: إن كان المدار على الصور دون الحقائق، فسجود الملائكة لآدم، وسجود يعقوب ليوسف، قاضٍ بأنّهما عبدا غير الله.

وإن قلت: بأنّ تعلّق إرادة الشرع دفعت المنع. فقد أوردنا من الأخبار وكلام الصحابة ما يفيد عدم المنع، من أمثال الصور التي ذكرت.

ثمّ بالله عليك أنصفْ، ما الفرق بين قول الصدّيق لصاحبه في السجن: ﴿أذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] وبين قولنا لرسول الله ﷺ: «اذكرني عند ربك».

ثمّ كيف باستغاثة وليّ موسى[1] ولم يحكم عليه بالكفر؟! ثمّ كيف باستطعام موسى والخضر أهل القرية؟[2] ثمّ كيف يقول أصحاب موسى: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: ٦١]، ثمّ ما معنى قول الأسباط ليعقوب: ﴿أسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ فقال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٧ و٩٨]؟!

وعلى كلّ حال، إن أريدت الحقائق في الاستغاثات والدعوات وغيرها، ففي ذلك خروج عن طريقة الإسلام، وإلاّ فلا بأس، وإلاّ للزم ألاّ يخرج من الكفر أحدٌ من العالم، ولا يمكنك ـ والله ـ ولا يسعك إلاّ أنْ تقول: إنّما يُراد دعاءٌ خاص، واستغاثة خاصّة، ونحو ذلك، فيرتفع المحذور.

---

(١) إشارة إلى الآية (١٥) من سورة القصص: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾.
(٢) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الكهف، الآية (٧٧): ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾.

وأمّا مَنْ قصد حقيقة العبادة مع غير الله، ليتقرّب إلى الله زلفي، أو لغير ذلك، فهو خارج عن ربقة الإسلام.

وما ذكرتم من أنّا نفرّق بين الصالحين وغيرهم، فمعاذ الله أن نفرّق بين مَنْ يعبد موسى أو محمّداً ﷺ، أو يناديهم ويدعوهم، أو يستغيث بهم أحياءً وأمواتاً، ويلجأ إليهم على أنَّ لهم الأمر أو ليقرّبوه زلفى، وبين مَنْ يعبد فرعون، وهامان، وإبليس.

أين النفوس المقرونة بالأبدان التي تتغيّر من أدنى حوادث الزمان، ولا زالت مورداً للأمراض، ومحلاًّ للأغراض، لا تدفع شيئاً من حوادث الدهور، وليس لها في كلّ الأمور من أمر من رتبة المعبود، ومن لا يصلح لغيره الركوع والسجود؟ إنّما هم عبيد زادت علينا عبوديّتهم، وخدّام سبقت خدمتنا خدمتهم.

فإن أُمرنا بتقبيل بنائهم، أو تعظيم أبنائهم، أو التماس دعائهم، فعلنا امتثالاً لأمر ربّنا، كما صنعنا ذلك في أحجار الكعبة وأركانها. وإن نهانا تركنا؛ إذ لا خوف إلاّ من الله، ولا رجاء إلاّ له.

وأمّا قولك: إنّه قد ورد في الحديث عن الصادق الصدوق، قال: «عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديّين من بعدي، عضُّوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة»[1].

وفي الحديث الثاني، قال: «افترقت اليهود والنصارى عن اثنين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمّة عن ثلاثة وسبعين فرقة، كلّها في النار إلاّ واحدة». وسُئِلَ عن الواحدة، فقال: «ما أنا عليه اليوم وأصحابي»[2].

أقول: اللّهمّ إنّي رضيتُ بسُنَّة الخلفاء الراشدين حكماً، وما عليه أصحاب مُحمَّد متمسّكاً وملتزماً، فأُحِلُّ ما أحلّوه، وأفعلُ ما فعلوه. وهذه أقوالهم

---

(١) سنن الترمذي، ج٥، حديث ٢٦٧٦؛ سنن أبي داود، ج٤، حديث ٤٦٠٧؛ سنن ابن ماجة، ج١، حديث ٤٢.

(٢) كنز العمّال، ج١، ص ١٠٦٠.

وسيرتهم في هذه الرسالة أوضحتُها، فلا أزيغُ عنها، ولا أبعد مسافةً منها، فتتبّع ما رويتُ من أخبارهم، وما نقلتُ من آثارهم، رزقني الله وإيّاكم حلاوة الإنصاف، وجنّبنا مرارة الجدال والاعتساف.

وأمّا قولك: «فلا تغترّ بالكثرة وهذا الثابت عن نبيّك، والله يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]. وفي الحديث: إنَّ بعث الجنّة من الألف واحد، فأنت اختر لنفسك، والمهديّ من هداه الله».

أقول: يا أخي، الوصيّة مشتركة بيني وبينك، فالذي عليَّ ألاَّ تأخذني حميّة الآباء والأجداد، وحبّ الطريقة المأنوسة بين العباد، بل أنظر بعين البصيرة وإخلاص السريرة.

وأمّا أنت، فإنّي أخشى عليك من حبّ الانفراد، حتى لا تكون كبعض الآحاد، فإنّ الأصابع لم تزل ممدودة إلى مَنْ ركبَ جادة غير معهودة، وقد ورد في المثل: «خالفْ تُعْرَفْ».

ثمّ إنّي ـ والله ـ أخشى عليك من جهة أنّك كنتَ خالي البال، بعيداً عن هذه المحال، فوردتْ عليك شبهاتٌ لم تستطع ردَّها، وخيالاتٌ لم تبلغ حدَّها، فكان الحال كما قال: «صادف قلباً خالياً فتمكّنا»[1].

وأمّا اليوم، فليس لك عند الله عذرٌ، فقد علمت بالأخبار، وسمعتَ بطريقة الخلفاء الأبرار، فأجدَّ نظرك، واستعمل فكرك، واخلع عن نفسك ربقة التقليد، واطلب من ربّك التأييد والتسديد.

ثمّ ما ذكرتَ إنّما يدلّ على أنَّ الحقَّ مع القليل من المكلّفين لا من المسلمين، فإنّ أكثر أهل الأرض كفّار؛ من يهود، ونصارى، ومشركين،

---

(١) إشارة إلى قول القائل:

عرفتُ هواها قبلَ أنْ أعرفَ الهوى ... فصادفَ قلباً خالياً فتمكّنا

وجـاحـديـن، وغيـرهـم، حتـى أنَّ نسبـة إقـليـم المسلميـن إلـى سـائـر الأقـاليم أقلُّ قليل.

فنحن نقول بأنَّ مَنْ أطاع أكثر الخلق ضالّ؛ لأنَّ أكثر الناس من أهل الكفر والضلال، وأنّ الشكور قليل، وأنّ بعث أهل الجنّة من الألف واحد، ولو استندت في هذا إلى حديث الفرق، فوحدة الفرقة لا تنافي زيادة أفرادها على ألف فرقة.

والحقّ أنّه لا ملازمة بين القلّة والكثرة، وبين الحقّ والباطل، فكم من قليل هُدي إلى الصواب، وكثير حلَّ عليه المؤاخذة والعقاب، وكم قد انعكس الأمر في هذا الباب، والمدار على طلب العصمة والنجاة من ربّ الأرباب، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

تـمّت علـى يـد أقـلّ العبـاد عمـلاً، وأكثرهم زللاً، محمّد قاسم ابن شيخ محمّد بن حمزة الدلبزي في سنة ألف ومائتين وعشرة.

الفهــرس

* * *

كتبت هذه الرسالة وأرسلت إلى الأمير السعودي سنة ١٢١٠هـ - ١٧٩٥م، أي في زمن عرف متغيّرات خطيرة: أولها سعي بريطانيا إلى التفرُّد بالنفوذ في منطقة شبه الجزيرة العربيَّة ومحيطها، بغية تأمين سلامة المواصلات التجارية بين الهند وانجلترا... وثانيها تأسيس الدعوة الوهابيَّة، وهي دعوة سلفية المعتقد، إمارةً تعمل على التوسّع في شبه الجزيرة العربية ومحيطها، بعد أن تم التحالف سنة ١١٥٧هـ - ١٧٤٤م، بين الداعية السلفي الشيخ محمد بن عبدالوهاب والأمير الطّموح محمد بن سعود. وثالثها عجز الدولتين الكبيرتين في المنطقة، آنذاك، العثمانية والقاجاريَّة عن مواجهة ما يحدث.